منتديات ليلاس

مجلة روايات أحلام

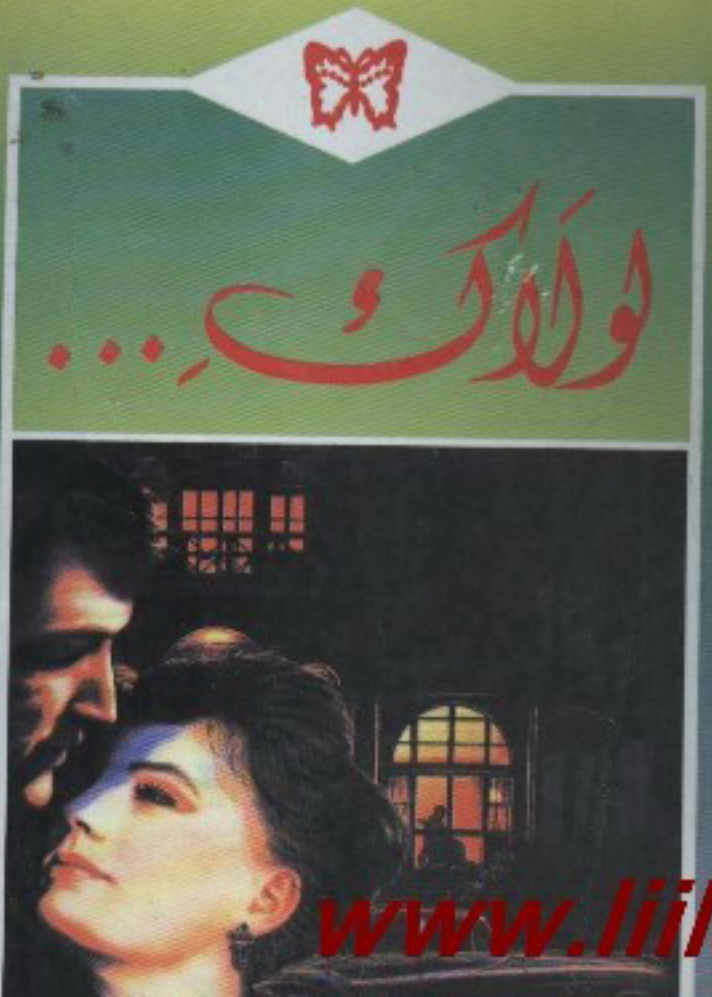

مجلة روايات أحلام

لـــولاك

بعيداً عن العالم، في مزرعة نائية، حيث الوجوه نسيت الابتسام، وحيث لا امرأة تجرؤ على الدخول. هناك وصلت ماندي تبحث عن أخيها، والتقت سيد الانتقام.

كان أول ما فكّرت فيه هو الهرب، غير أن غرانت مونتغمري أرادها رهينة فالجراح التي تركها أخوها في وجهه وقلبه ما زالت حية. لقد استطاع أخوها الهرب مرة لذا لن يسمح لهذا أن يتكرر ثانية مع ماندي.

لبنان ٢٠٠٠ ل.ل.	الإمـــارات ٦ د.	مصـــر ٤ ج.	ليبيـــا
سوريا ٥٠ ل.س.	قطـــر ٦٠٠ ر.	المغـــرب ١٥ د.	اليمـــن
الأردن ١ د.	البحرين ٦٠٠ ف.	تونـــس ١,٥ د.	السودان
الكويت ٥٠٠ ف.	السعودية ٧ ر.	عمـــان ٦٠٠ ب.	العـــراق

www.liilas.com/vb3

منتديات ليلاس

١ - رجل لا يعرف الرحمة

كان توتر أعصابها يزداد كلما اقتربت من كروماندیل. . قد تفهم سبب انتقال رايان من مكان إلى آخر إذا كان يريد أن يكون قرب وظيفته. . لكن كان يجب أن يخبرهم بانتقاله! فمن الخطأ أن يغير عنوانه دون إعلامهم. لقد قطعت مسافة طويلة فوق المحيط الهادىء حتى تجده، لكنها صدمت صدمة رهيبة عندما اكتشفت أنه انتقل من مسكنه إلى مكان آخر، وقد كانت حسنة الحظ لأن أحد جيرانه تذكر عنوان عمله.

دعت الله طوال الطريق ألا يكون قد ترك عمله كما ترك مسكنه، لأن ذلك سيكون كالقشة التي قسمت ظهر البعير.

منذ خلّفت أوكلاند وراءها، امتدت المناظر الطبيعية أمامها فلم تكن ترى إلا السهول المنبسطة الغنية بالخمائل الخضراء. في البعيد، تحول لون الأرض البني إلى ضباب أزرق يميل إلى الاخضرار حيث يبدأ الدغل. . لكن قبل الوصول إلى الغابة الكثيفة، انعطفت السيارة عن الطريق الرئيسي، سالكة طريقاً ترابياً ضيقاً أفضى بهم أخيراً إلى بيت منبسط قرميدي السقف.

رفعت جياد ترعى العشب رأسها غير عابئة بهذه السيارة المارّة. ولم يكن هناك إلا مساحات الحقول الشاسعة الممتدة في كل اتجاه. . وكأنها وسط لا مكان.

www.liilas.com/vb3

سألت سائق التاكسي وهي تنقده أجرته:

ـ أهذه مزرعة غرانت مونتغمري؟

لو كانت تعرف أن هذه المزرعة بعيدة هذا البعد كله لفكرت مرتين قبل أن تستأجر التاكسي... فكرت في أن تطلب من السائق الانتظار حتى تتحقق من وجود رايان أو عدمه، لكنها عادت فعدلت عن رأيها.

هز السائق رأسه:

ـ بكل تأكيد يا سيدتي.. هل يتوقع قدومك؟

ـ جئت أطلب أخي العامل في هذه المزرعة.

ابتسم السائق قبل أن ينطلق بسيارته مسرعاً وما هي إلا ثوان حتى اختفت بعد أن خلفت وراءها غباراً كثيفاً.

دنت من المنزل الواسع الانتشار تجيل عينيها فيه معجبة بما ترى.. إنه منزل طويل له سلسلة قناطر تضفي على الحدائق القابعة خلفه لمحة مغرية.

ما إن اقتربت من الباب حتى ظهر رجل كهل يضع قبعة منخفضة فوق وجهه الذي لوحته أشعة الشمس.

ـ أنم تفضلي دربك يا آنسة.. نحن لا نستقبل الزوار هنا.

كانت الكلمات الفظة الجافة مثبطة للهمة. لكن ماندي نظرت إليه بأمل:

ـ هل أنت السيد مونتغمري؟

ارتفع حاجبا العجوز عجباً، وتغضن جبينه بآلاف الخطوط.

ـ أنا مدير مزرعته.. هل يتوقع قدومك؟

هزت رأسها:

ـ لا.. لكن الأمر مهم، وسأكون ممتنة إن أعلمته بوجودي.

تابع الرجل نظرته المرتابة:

ـ لا يقابل السيد مونتغمري أحداً دون موعد سابق. هلاً قلت لي ما الخطب؟

توترت ماندي، من أي نوع من الأشخاص هو غرانت مونتغمري.. وقالت:

ـ الأمر يتعلق بأخي... رايان شيلتون.

تغيرت أسارير العجوز، واعتلاها التجهم:

ـ أنا آسف آنسة.. لقد بت متيقناً أكثر من ذي قبل من أن السيد مونتغمري لن يقابلك.

ضاقت عيناها، تحس بارتباك لا تفسير له.

ـ لم أقطع هذه المسافة كلها حتى تبعدني.. أطلب منك أن تقودني إليه.

هز كتفيه:

ـ حسناً.. لكن.. أرجوك، انتظري هنا.. سأرى ما أستطيع فعله.

اتجه نحو إحدى القناطر، وقبل أن يختفي نظر خلفه، فأصيبت ماندي بالحيرة. إن هذا الكهل لم يؤكد أو ينفِ وجود رايان. هو يعرف أخاها على ما يبدو لكن ثمة خطأ ما.

إن دهراً مضى قبل عودة الرجل ولم تكن قد تحركت من موقعها.. الشمس الحارقة جعلتها تأسف لأنها لم تعتمر قبعة. لكنها كانت مسرورة بهذه الشمس وبهذا اليوم الرائع الذي يندر أن يكون له مثيلاً في انكلترا.

قال العجوز:

ـ سيراك السيد مونتغمري... اتبعيني!

سارت رافعة رأسها بإباء يتعالى صدى حذائها على الأرض المرمرية، وعيناها على غير إرادة منها، تجولان فيما يحيط بها..

لتعلماها بأن غرانت مونتغمري رجل ثري جداً.

لم يحاول الرجل الجالس خلف مكتبه الوقوف حين دخلت، بل لم ينظر إليها حتى.. فاستنتجت أنه أفظ رجل رأته قط. كانت ساقاه ممدودتين تحت الطاولة، ومداسه الجلدي العالي الساقين يبرز من الناحية الأخرى.. كان يقلّب قلماً بين أصابعه القوية النحيلة، ويبدو مهتماً به أكثر من اهتمامه بالزائرة.

أخيراً رفع بصره إليها:

- انسة شيلتون؟

هزت ماندي رأسها، فوقع دبوس من شعرها الأحمر الطويل مرسلاً خصلة منه حول وجهها. كانت قد رفعته عمداً ليبرد الهواء مؤخرة عنقها. والآن بعد أن انسدلت هذه الخصلة أرجعتها إلى الخلف ثم ردت نظرته بأخرى لها الكبرياء نفسها والعجرفة ذاتها.

كان واضحاً أنه غير مسرور برؤيتها، مما يشير إلى أن المودة بينه وبين شقيقها مفقودة. وبما أنها لم تأت إلى هنا لتراه هو، فعليها أن تتجاهل عداءه حتى تجد رايان. لكنه سبقها بالقول:

- إذا كنت تسعين وراء أخيك، فاحملي نفسك وعودي من حيث أتيت لأنه ما عاد يعمل في المزرعة.

لا مجال للخطأ فالكراهية بيّنة في صوته والتكبر واضح فيه. والطريقة التي ينظر فيها إليها، تشير إلى أنه يكرهها كما يكره أخيها، وهذا ما جعلها تنتفض إذ أحست وكأن سكيناً تغرز في لحمها. راحت تسيطر بصعوبة على اندفاع يحدوها إلى التراجع بعيداً عن هذا الرجل ولسانه السليط اللاذع.. لكنها قالت:

- ربما تستطيع أن ترشدني إلى مكانه؟

لم تشعر في حياتها بأنها مرفوضة هكذا.. إنه يكره فعلاً مجرد النظر إليها، وهذا أمر يحيرها، فهما لم يلتقيا إلا الآن.

- ليس لدي فكرة.

عرفت من هذا الإنكار الأجش أنه لم يكن يهتم. فقالت محتجة:

- لكن.. يجب أن تعرف. إنه أخي.. ألا تفهم هذا؟ جئت من انكلترا بغية رؤيته.

- لا يهمني أبداً من أين أتيت. أنا لا أرحب بك هنا. أرجوك ارحلي.

هزت رأسها بعنف وسقط دبوس شعر آخر، فما كان منها عندئذ إلا أن أزالت ما تبقى من دبابيس ثم ردت شعرها إلى الوراء بأصابع نافدة الصبر:

- وما هو المكان الذي تقترح علي قصده؟ وصلت إلى مزرعتك بالأجرة. وقد كلفني مجيئي ثروة، ألا تعرف مكان رايان حقاً؟ لقد صرفت التاكسي.

- أنت غبية كبنات جنسك. كيف تصرفين التاكسي قبل أن تتأكدي من أنك في المكان الصحيح؟ أعتقد أن على ماكس الآن أن يوصلك، اقبلي نصيحتي، اركبي الطائرة الأولى العائدة إلى بلادك.. فلا شيء لك هنا.

انتفضت ماندي وتوترت أعصابها، فدنت من مكتبه، تحدق في عينيه، اللتين أضحتا أشدّ اسوداداً وتحجراً من الليل، تتقيان نفسها وتصلان إلى روحها.. فأحست بالارتجاف، من قوة رجولته:

- أرفض الذهاب حتى تدلني إلى مكان أخي إذ يجب أن أعلم مكانه.

دفع نفسه ببطء واقفاً، فتمنت ماندي لو بقيت جالسة، فمع أنها لا تعتبر نفسها قصيرة فطولها مئة وسبعين سنتيمتراً إلا أن هذا

الرجل، الذي يعلوها كالبرج الشامخ أطول منها بما لا يقل عن ثلاثين سنتيمتراً. كما أنه عريض المنكبين، نحيل الخصر يرتدي جيتراً باهتاً.

- ليس من عادتي الكذب آنسة شيلتون، فأنا لا أعرف مكان أخيك، ولا أهتم بمعرفته. أهذا واضح؟

ارتفع صوته وهو يكلمها، حتى وجدت صعوبة في كبت غضبها.

- واضح تماماً.. لكنني ما زلت أؤمن بأنك قادر على مساعدتي. وليس لي سواك، يدلني ويرشدني.

التوت شفتاه ازدراء:

- أيهمك حقاً أن تجديه؟

- إنه لم يتصل بنا منذ سنتين.

بدا لها رجلاً يكره التقيد إلى الكرسي، ويجد أن من الضرورة التعامل مع الشرّ مباشرة للتخلص منه.. وهي قد سببت له الاضطراب؟

- لم يبدُ لي يوماً ابناً لأم.

- لكنه راسلنا في بداية وصوله إلى هذا المكان وكان يبعث إلينا بخطاب شهرياً. وعندما امتنع، اضطرب والداي.

اعتلى عبوس أسود وجهه وجعله أشد خطراً، مما أرسل رعشات إلى ظهرها:

- لا أدري لماذا تقولين هذا.. فأنا لا أهتم بأي شيء يخص رايان شيلتون.

أصبح ملء عينيها العداء:

- حسن جداً.. لقد تخاصمت معه إذن.. لكن هذا ليس سبباً يجعلك ترفض مساعدتي.. فقد كنت أنوي البقاء معه.

- إذن.. حظك سيء!

وعاد إلى كرسيه الذي وجهه ناحية النافذة. لاحظت ماندي أن شعره الأسود يغطي عنقه.. وأحست برغبة مجنونة في ملامسته. لم تكن قد شاهدت من قبل رجلاً له هذه الجاذبية.

إذا ما قورن مع من قابلتهم اعتبر قاسياً ومتوحشاً، بل بربرياً على الأرجح. فيه اتصال بالأرض الصلبة راق لها بشكل غريب، وجعل نبضاتها تتسارع. وعلى الرغم من شعورها بالغضب الشديد تجاهه إلا أنها لم تلتق بأحد لديه مثل هذا العداء المفتوح.. صاحت به:

- لقد جئت إلى بلادك بتذكرة ذهاب بدون إياب وهذا كل ما أستطيع تحمل نفقاته. وإن لم تساعدني، فما من طريقة أخرى لأجد رايان.

- إنه حظك السيء.

ليته يستدير إليها فمن المستحيل التحدث إلى ظهر رجل:

- أهذا كل ما تظهره من اهتمام سيد مونتغمري؟ لن تضرك مساعدتي.

- هل تشيرين إلى أنني أكذب؟

- بل أقول إنك تتعمد التحفظ، وما هذا إلا لأنك تبادلت معه.. كلمات.. تحاول الانتقام مني لأجلها.

- بلغي عنه على أنه مفقود.

- وماذا سيفيدني هذا.. سيأتون إلى مزرعتك سائلين، وإذا صعبت عليهم الأمور كما تصعبها عليّ، فلا سبيل أمامهم إلا الرحيل.

ارتفعت كتفاه دليل عدم الاكتراث:

- وهذا أيضاً بسبب حظك السيء.

ـ أريد أن أعرف فقط ما الذي حصل للرسائل التي بعثناها إليه. أكان يعيش هنا بعد انتقاله من شقته في أوكلاند؟

التفت إليها مرة أخرى ببطء.. هي لم تشاهد قط رجلاً له كبرياؤه وعجرفته، وعدائيته التي تظهره، وكأنه يكره العالم كله:

ـ لم يقم هنا قط. ولا أعلم ما جرى لرسائلك. ربما وصلت في الوقت الذي.. الوقت الذي...

وصمت قليلاً، ثم أردف يتطلع إليها:

ـ... الذي ترك فيه الخدمة عندي.

ـ ولماذا ترك؟

انتفضت عندما صفق قبضته في راحة يده الأخرى:

ـ لأنه يحب حياته!

كان في لهجته حقد دفين جعل رأس ماندي يرتد إلى الوراء عجباً ورعباً:

ـ وهل هددته؟

رد متصلباً:

ـ لا رغبة لدي في بحث أمر رايان شيلتون.. أرجوك اذهبي من هنا! ليس لدي ما أقوله لك.

ولم تكن ماندي تنوي الانصياع له:

ـ أنت على ما يبدو تخفي عني معلومات تفيدني.. فلماذا؟

التوت شفتاه مكشراً عن أسنانه:

ـ أيدهشك إن قلت لك إن السبب هو عدم رغبتي في تخييب أوهامك؟

ـ حسناً.. ليس أخي قديساً إذن. ولا أعرف شيئاً عن هذا. فأنا لم أره منذ أن كنت في الرابعة عشر من عمري، وهو يكبرني بعشر سنوات، ولم يكن لي شأن كبير معه.

ـ لماذا تلاحقينه الآن إذن؟

ـ لأنه من تبقى لي من عائلتي. منذ أشهر مات والداي اللذان كانا ينويان المجيء إلى هنا حالما يتقاعد أبي، ولكن لسوء الحظ أصيبا بحادث سيارة مفجع.

ولم تستطع إخفاء الأسى والتهدج عن صوتها. مع أنها لم تكن تتوقع العطف منه، ولا هي تلقته.

ـ وهكذا فكرت في أن تنصتي إلى أخيك الحبيب؟ اقبلي نصيحتي آنسة شيلتون وعودي فوراً.. فما من أحد يحمل اسمكم مرحب به.

ـ لا يجوز أن تأخذني بجريرة أخي مهما كان مقدار دنيه. ليتك تتعاون معي فقط. أعطني فكرة فقط عن المكان الذي تظن أنه فيه. وسألحق به. فأكره البقاء في مزرعتك ككرهك لبقائي فيها.

ـ أقول للمرة الأخيرة إنه ليس عندي فكرة عن مكان أخيك... ولا أرغب في أن أعرف... ولو عرفت لقتلته!

جعلها الحقد الدفين في لهجته تشهق وترتد إلى الوراء فنظر إليها ببرود:

ـ تبدين دهشة.. ألم تري من قبل رجلاً يغلي قلبه كراهية؟

ـ لا أظنه ارتكب جريرة كبيرة إلى هذا الحد حتى يغلي صدرك بهذا الحقد كله. لقد مضت سنتان؟ أنت رجل قاس سيد مونتغمري.. لذا أعتقد أن أخي كان تائقاً إلى ترك خدمتك بمقدار توقك إلى الخلاص منه.

كانت الحرارة في صوته بارزة:

ـ اوه.. لقد كان في غاية التوق، فحين يطلق أحدهم النار عليك، لن تقفي لتجادليه.

ارتعدت ماندي:

ـ أتقول إنه هرب منك لأن سلاحك كان مصوباً إليه؟

ـ صحيح! وأنت غير مرحب بك كما لم يكن مرحباً به. لا أريد أن تكون لي صلة مع أي فرد من أفراد عائلة شيلتون، لأن فمي يمتلىء قيحاً كلما ذكرت اسمهم.

كانت قبل قليل تنضح عرقاً.. أما الآن فهي تحس بالبرد وقلبها يتسارع، وساقاها وهنتان وهناً غير عادي. يجب أن تبلغ الشرطة. فلا يحق لأحد أن يرفع سلاحاً في وجه أي إنسان! هذا الرجل خطير.. مجنون! وصاحت بصوت مرتفع:

ـ سيد مونتغمري لقد جعلتني أكثر تصميماً على البقاء رحيت بي أم لم ترحب. فأنا أنوي الوصول إلى أعماق ما تقول. فأنت مجنون! لا يمكنك فعل هذا بالناس، إنه ضد القانون.

ـ حين تصبحين خائفة على حياتك، لا تفكرين كثيراً في ما إذا كان الأمر قانونياً.

ـ أكان يهدد حياتك؟

قفز نحوها بحركة وحشية فكان أن رأت للمرة الأولى وجهه كاملاً. سمعته يصيح:

ـ بل فعل أكثر من التهديد.. لقد فعل هذا!

وأدار لها فكه.. فارتدت مرتعبة حين شاهدت ندبة جرح بشعة تقطع خده.

ـ رايان.. فعل.. هذا.

خرجت كلماتها متحشرجة كالبكاء، فالتوت شفتاه وأمسك بيدها فجأة:

ـ شعرت بالنفور، أليس كذلك؟

ووضع أصابعها على الجرح حتى تلمس الخط المجوف الخشن الذي يقطع فكه، وأكمل بوحشية:

ـ ما رأيك بالعيش مع هذا؟ ما رأيك أن تحملي هذه الوصمة إلى آخر عمرك.. أما زلت دهشة من كرهي له؟

شحب وجه ماندي وحاولت التراجع.. فضحك بصوت عميق غير مستساغ.

ـ جعلك جرحي تشعرين بالسقم؟ فماذا عن شعوري أنا؟ أتعرفين ما فعله هذا بحياتي؟

هزت رأسها والغثيان يتصاعد إلى حلقها، حتى أصبحت غير قادرة على الابتلاع؛ بل لقد أشاحت عينيها المذعورتين عن الجرح الذي تشعر به تحت أصابعها المرتجفة. لكنها تمكنت أخيراً من التمتمة متلعثمة:

ـ لم أكن أعرف...

صاح بها:

ـ بكل تأكيد.. وها أنت الآن لا تطيقين مجرد النظر إليّ.. ما من امرأة تحب أن ترى رجلاً مشوهاً. ما من امرأة تطيق أن ألمسها. أليس هذا صحيح؟

ترك يدها فجأة ثم أمسك وجهها بين أصابعه القاسية، وأجبرها على النظر إليه، ومع أنها أبعدت عينيها عن الجرح إلا أن للنظرة التي تطل من عينيه الوقع نفسه.

أغمضت عينيها، وهي تعلم ماذا سيفعل، فمع أنها لم تعد ترى نظرته القاسية، أو جرحه الكريه، إلا أنها لم تستطع السكوت فحاولت المقاومة متجاهلة عناقه الذي كان يؤثر فيها بطريقة لم تتوقعها... كان في عناقه ما أشار إلى أن نساء كثيرات مررن في حياته. لكنها وجدته رغم غضبه وعدائيته رجلاً رائعاً جذاباً.

إن هذا لجنون، لا سبب أو دافع وراءه، لكنه واقع. كانت تستجيب إليه كما لم تستجب لرجل في حياتها... وهذا الاكتشاف

أوهن مقاومتها، وحين أبعدها عنه أخيراً كان في عينيه تحد.

- والآن.. أفهمت الآن سبب رفضي وجودك.. لقد أعدت إلي الذكرى.. الأمر اللعين كله. وكأنما كنت بحاجة إلى من يذكرني! وكأنما لم أعانِ ما يكفي!

صاحت ماندي:

- يا إلهي ما هذا الشعور بالأسى الذي تحس به؟ وكيف لي أن أعرف؟ أخبرني.. هلا أخبرتني؟

هز رأسه وصاح:

- أغربي عن وجهي.

- ليس قبل أن تخبرني عما حدث. أنت على الأقل مدين لي بذلك.

ابتعد عنها وجلس خلف طاولته:

- مدّ أخوك الشرير يده على أموالي... لقد عرض علي بكل لطف مساعدتي في الحسابات التي تراكمت علي، لكنه راح يملأ جيوبه. وحين عرفت، واجهته فأنكر. وعندما قلت إنني سأستدعي محاسباً قانونياً للتدقيق في الحسابات أظهر شره... كنا معاً على ظهور الخيل، ندرب حصانين من جياد خيولي.. وما إن أصبح حديثنا نقاشاً حاداً حتى ترجلت عن ظهر الحصان واقترحت عليه أن يحذو حذوي.. وقلت له إنه إذا أصلح ما أفسده ورد لي مالي، فلن أقوم بشيء ضده إلا أن هذا لم يناسبه، ففقد أعصابه تماماً ووجه حصانه إليّ وكان حصانه متوحشاً. فما أن صاح به وضربه هازاً لجامه، يدفعه نحوي حتى خسرت أي فرصة للنجاة. ولو تحطمت ضلوعك من قبل تحت حوافر جواد، أو تهشم وجهك لعرفت ما أشعر به من مرارة. كنت أعلم أنه سيحث جواده أكثر فأكثر ليدوسني حتى الموت. ولم يكن بيدي حيلة.

وضعت ماندي يدها على فمها وهي تصغي إليه.. كيف لرايان أن يرتكب جرماً كهذا؟ ما الذي دهاه بحق الله؟

- لكن الحظ حالفني فقد وصل ماكس الذي أخرج بندقيته وقتل الجواد وليته قتل رايان عوضاً عنه.

- ثم ماذا؟

لم يكن بحاجة لإثبات قصته، فالجرح على وجهه خير دليل.

- حين تيقن ماكس من أنني ما زلت حياً كان رايان قد رحل، بعد أن قتل أفضل جيادي، وبعد أن اختلس ألوف الدولارات فهل فهمت الآن لماذا أحرّم ذكر اسمه هنا؟ ولماذا أرفض أن تكوني في مزرعتي؟ هيا اخرجي من هنا حالاً.

وضع رأسه بين يديه، وانحنت كتفاه، فعرفت ماندي أن ما من قول أمامها لتقوله. وما من مجال لإصلاح الغلط أو الأذى الذي ارتكبه أخوها. فحمدت الله لأن والديها ماتا قبل أن يعرفا حقيقة الابن الذي كانا فخورين به.. كانا يظنانه رجلاً ناجحاً..

توجهت ببطء نحو الباب.. تتساءل عما ستفعل.

يجب أن تجد عملاً.. تدخر منه ما تستطيع لمتابعة البحث عن رايان.. أو للعودة إلى وطنها. فليس معها إلا القليل من المال الذي أنفقته على الجنازة والسفر. وكانت قد صدمت حين اكتشفت أن والديها ما أمّنا على حياتهما أما منزلهم الذي لم يكن ملكاً لهم، فلا نتيجة منه كذلك.

كانت قد أصبحت خارج الباب حين أوقفها صوته الأجش مطالباً:

- آنسة شيلتون!

التفتت إليه، فعلمت من خلال أساريره أنه لن يعجبها قوله:

- لقد قررت أن أضع على عاتقك تسديد ديون أخيك. ستبقين

في مزرعتي حتى تعملي فيها إلى أن تسددي ما أعتبره دين أخيك.

- وهل تقصد أن أعمل دون مقابل؟

إن الرجل مجنون.. معتوه دون شك، فقد أثرت الحادثة على ما يبدو على عقله.

- هذا أقل ما يمكنك فعله. اسمعي يا هذه أنا بحاجة الآن إلى مدبرة منزل وطاهية. فإن استخدمتك وفرت على نفسي مشكلة الإعلان.

- طاهية..؟ لكن سيد مونتغمري.. أنا لست بارعة في أعمال البيت؟

- النساء جميعهن يعرفن الطهو. ولقد اعترفت أنك بحاجة إلى سقف يأويك، وبذلك نحل مشكلتي ومشكلتك.

- وهل نسيت أن وجودي سيذكرك دوماً بأخي؟

- لا.. لم أنس.. لكنني أمل أن تخفف رؤيتك تتعذبين المرارة والألم عن نفسي.

- أرفض أن أصغي إلى جنونك.

وابتعدت عنه وتوجّهت إلى الباب، لكنه ركض خلفها وأمسك بذراعها وجرّها ليعيدها إلى الغرفة. فصاحت به:

- أنت مجنون.. لا يمكنك فعل هذا.. لن أسمح لك!

- ليس أمامك خيار آخر. واعلمي أنك لن تبتعدي كثيراً وإن حاولت الهرب... فكما لاحظت المكان معزول كل العزلة.

نظرت إليه بعداء، مشتعلة العينين غضباً:

- أتنوي احتجازي هنا؟ أي نوع من الرجال أنت سيد مونتغمري؟ ربما لم يكن أخي مخطئاً حين هاجمك. كيف لي أن أعرف إن كان اتهامك باطلاً؟ فأنت لست عادلاً معي.

- ولن أكون... ليتني لم أره قط.. لكنك ستفين بالمراد.

ارتجفت ماندي من جراء قساوة كلماته لكنها ردت بشجاعة:

- أنت لا تخيفني سيد مونتغمري.. وما من طريقة لاحتجازي هنا رغم إرادتي.. سأتصل بالشرطة. أخبرني، هل أنتم جميعاً متوحشون؟

- إذا كنت تجدين وسائلي غير طبيعية فلا تلومي سوى أخيك. كنت أفتخر دوماً بعدالتي.

- وهل تحاول الانتقام من أي شخص بسبب ما أصاب وجهك؟

التوت شفتاه بسمة غير مرحة:

- أنت قطة نارية متوحشة.. هذا عظيم.. فستحتاجين إلى هذه الروح النارية، صدقيني، لأنني سأجعلك تعانين كما جعلني أخوك أعاني.

- أيها الخنزير! لن تفعل بي هذا ولن أسمح لك به!

وانطلقت ثانية نحو الباب وفتحته، تنظر إلى غرانت مونتغمري نظرة غاضبة. إلا أن عجوزاً سدّ عليها سبيل الخروج.. فوقفت مسمّرة.

- آه.. ماكس.. لقد وافقت الآنسة شيلتون مشكورة على القيام بمهام مدبرة المنزل. فهلاّ أرشدتها إلى غرفتها.

بدت الدهشة على ماكس، لكنه تقبل الموقف دون استيضاح:

- على الرحب والسعة آنسة.. سيسعد الجميع الطعام الجيد.

لم أتلق سوى التذمر والتأفف منذ أن توليت الطهو بنفسي.

- لكنني لست طاهية ماهرة كذلك.

- لن تكوني أسوأ مني.

ثم رافقها حتى وصلا أمام باب مقفل:

- ستكون هذه غرفتك.. أخشى أنها بقيت على حالها منذ رحيل السيدة كيلي.. فلا يملك أي منا الوقت لتنظيف الغرف.

- أفهم من هذا أن السيد مونتغمري غير متزوج؟

وحين لم تتلق الرد التفتت إليه فإذا الكهل قد رحل. فصفقت الباب غاضبة.. من يحسب غرانت مونتغمري نفسه بالضبط؟ لا يستطيع فعل هذا بها... لن تتركه يفعل!

فتحت الباب بجنون.. ستقول له رأيها به وبوظيفته.. لكنها تسمّرت في مكانها وهي تراه يشحمه ويُلحمه أمامها، حاملاً حقائبها التي سارع إلى وضعها في الغرفة:

- سيد مونتغمري...

- ليس على العشاء إلا أنا وماكس، لكن على الفطور ثمة ثمانية أشخاص غيرنا.. فالرجال يصلون باكراً ويتوقعون تناول وجبة جيدة بعد عمل دام ساعتين في الصباح الباكر. وهم يتناولون الغداء هنا أيضاً، لكنهم طبعاً، يذهبون ليلاً إلى منازلهم.

لم تحاول إخفاء سخريتها:

- طبعاً... لكنني لن أبقى... فأنا أرفض أن ترهني!

- اسمعي فما أراه يظهر أن لا فرصة أخرى أمامك، فليس هناك من مكان قد تذهبين إليه.

- ربما ليس في هذه اللحظة، لكن حين أسترد قواي، وأتخطى ضعفي، سيد مونتغمري.. فسأرحل من هنا.

- لا تحاولي، صدقيني.. لأنك ستندمين لو امتنعت عن فعلك ذاك.

جلست على حافة السرير غاضبة، غضباً لم يحدث أن شعرت بمثله قط في حياتها.. لكنها متعبة كذلك، متعبة جداً، فليس لديها قوة تجعلها قادرة على ترتيب فراشها أو ارتداء ثيابها فما بالك بإعداد الطعام.

ماندي فتاة مقاتلة، وإذا ظن أنه قادر على إركاعها فهو

مخطىء. ربما لم يكن الطبخ ورعاية المنزل على لائحة الوظائف التي فكرت فيها، لكنها دون شك ستنجح، وليس أمامها حالياً خيار آخر.

وقفت باندفاع حيوي مفاجىء، لتوضب ثيابها فوجدت شراشف نظيفة للسرير في الغرفة المجاورة، بعد ذلك استحمت وغيرت ملابسها وارتدت فستاناً قطنياً، ثم سرّحت شعرها وعقدته في مؤخرة عنقها بشريط طويل من القماش.

وجدت المطبخ دون صعوبة، كان كبيراً وفيه وسائل راحة حديثة، مع أنه كان في تلك اللحظات أغبر وسخاً غير مرتب. وجدت مبدعة كبيرة وراء الباب، فارتدتها وشرعت تغسل الصحون، وسرعان ما أصبح المطبخ نظيفاً.

وجدت في البراد لحماً وفي وعاء خارج الباب بعض البطاطا.. ستقلي اللحم والبطاطا.

ما إن انتهى إعداد الطعام، حتى ظهر الرجلان وكأنما ظهورهما كان بفعل ساحر. ابتسم ماكس، فتغضن وجهه بآلاف التجاعيد وهو يرى الطعام.. أما غرانت مونتغمري فلم يظهر تأثراً يذكر بل جلس ليأكل برزانة، وحالما أنهى عشاءه اختفى.

أحست ماندي بالصدمة.. إذ كان عليه على الأقل أن يشكرها! بعد أن نظفت المطبخ ثانية عادت إلى غرفتها، وما إن لامس رأسها الوسادة حتى غفت في نوم عميق.

استيقظت على قرع عنيف على الباب.. لم تستطع لحظة أن تتذكر أين هي. فكل ما حولها من جدران بيضاء فشراشف وردية إلى أثاث خشبي غير مألوف بالنسبة لها.

سرعان ما كسر صوت مألوف تقريباً السحر حولها راداً إليها الذاكرة:

- هل أدخل عليك لأوقظك؟

تأوهت ماندي وقد تذكرت أن عليها إعداد الفطور لعمال غرانت مونتغمري، وبما أنها لا تريد أن يشمت بها إذا ما فشلت في مهمتها.. فقد قررت أن تنجح بأي ثمن.

نظرت إلى ساعتها فإذا هي قد تجاوزت الثامنة:

- أنا قادمة (قالت شاهقة).

هبّت من السرير ودنت من النافذة فرأت حدائق غناء فيها أشجار نخيل وصنوبر مختلفة الأنواع وفيها أزهار متعددة الألوان أكثر مما يقدر أن يتصور إنسان وهناك نافورة ماء دائرية تحافظ على اخضرار المروج، وفي نهاية الحديقة بركة سباحة! ما إن رأتها حتى قررت أن تسبح فيها بعد أن تنهي عملها. أما الآن فعليها الإسراع في ارتداء ملابسها للبدء بالعمل.

ستحتاج بالطبع إلى قواها جميعها.. وهذا الصباح الجميل لم يثبط من عزيمتها، ومع أنها لم تستعد إشراقها بعد إلا أنها أفضل حالاً مما كانت عليه ليلة أمس.. والبقاء مع غرانت مونتغمري سيكون معركة مستمرة ستتمتع بها، رغم بربريته في صب جام غضبه عليها.

كان المطبخ فارغاً، فحمدت الله، لأنها تصورت أن غرانت سيكون منتظراً، تعلو وجهه تقطيبة سوداء تشير إلى أنه يريد أن يعرف سبب تأخرها. كانت تعرف أن عليها إطعام ثمانية أفراد جائعة فسارعت إلى تحضير شرائح لحم، وعدد كبير من النقانق المقطع، وبيضتين لكل منهم، إضافة إلى طنجرة من الفاصوليا وكومة خبز مقلي.. ولم يكن لديها أية فكرة عما يأكله الرجال عادة، لكن لا بأس على ما تعتقد بفطور انكليزي تقليدي.

كان في طرف المطبخ، طاولة خشبية مستطيلة ثُبّت على

جانبيها مقعدان خشبيان، وضعت عليها السكاكين والشوك. وما إن نضج الطعام حتى كان الرجال هناك.. يرمقون جسدها النحيل الجميل برضى واستحسان لا سيما منه خصرها العالي وفتحة ياقتها الواسعة. أما غرانت فكان آخر الواصلين، وقد رمقها ببرود وهو يترأس الطاولة، ولم تسمع منه إلا كلمة «شكراً» وذلك بعد أن وضعت أمامه صحناً.

أخذت ماندي تتأمله عن كثب من موقعها في طرف المطبخ.. كان يرتدي تي شيرت سوداء، أظهرته شريراً أكثر من ذي قبل. كان له رشاقة الفهود السوداء ووحشية حيوانات الغابة. وكان يجب أن تكون عيناه خضراوين بدلاً من لونهما الأسود، لتكتمل صورة الفهد الأسود في ناظريها.

بعد أن أنهى الرجال وجبتهم، وشربوا ليترات من الشاي الذي حضرته لهم أسود ثقيلاً. خرجوا من المطبخ، وبقي غرانت مونتغمري الذي أشعل سيكاراً رفيعاً وشرع ينفث دخانه بكثافة، ويحدق فيها بعينيه السوداوين.

- يعتبر طعامك أجود بكثير من طعام ماكس.

نظرت إليه وهي تُبعد الأطباق الوسخة.

- وهل يفترض أن أعتبر كلامك إطراء.

- ليس من عادتي الإطراء. فإن أي امرأة ستكون أبرع من ماكس في الطهو.

تمتمت بحنق:

- كان يجب أن أعرف هذا.

لكنه سمعها فقست ملامحه:

- أحذرك آنسة شيلتون.. إن معظم رجالي متزوجون، لذا لا أريد أية مشكلة في هذا السياق. فقد رأيت الطريقة التي يرمقونك

بها.

- إنها الطريقة التي ينظر بها أي رجل إلى أية امرأة، إلا إذا كان قد قُدَّ من حجر. أنت تفسد حياتك الخاصة، تبعد عنك الناس. لكن إذا ظننت أنك قادر على صب إحباطك في نفسي فقد أخطأت لأنني قوية وقادرة على التعامل مع الرجال.. وهذا ما يجب أن أكون عليه.

- هذا يعني، أنك واجهت شخصيات ليس لديها ذوق.

نظرت إليه بسخرية:

- هذا ما تود أن تعتقده أنت. لكنك مخطىء.. فأنا أتكلم عن العمل.. لأنني مهندسة الكترونيات... وقد عانيت الأمرّين حتى أكون مقبولة في هذا الوسط!

تسللت عيناه إلى جسدها بدءاً من كاحلها انتهاء ببشرتها العارية عند الوسط.. ما إن وصلت عيناه إلى وجهها حتى كانت نبضاتها تنتفض بطريقة لم تستطع معها السيطرة على نفسها.. مما اضطرها إلى التساؤل بينها وبين نفسها «كم من الوقت مضى عليه منذ أن رأى امرأة؟».

- الكترونيات.. هه؟ لقد أدهشتني!

- صحيح؟ لكن ليس لك أن تحشر أنفك في مؤهلاتي كما لا شأن لك في أن تحدّد طريقة نظر الرجال إليّ... فلن أمكث هنا وقتاً يتسع لأحدهم فيه التقرب مني.

اشتدت خطوط وجهه وبرزت عظام فكيه. وعلى الرغم من عدائها له وجدت نفسها منجذبة إليه، فتذكرت ثانية تلك المشاعر التي أحست بها حين لامسها، كما تذكرت تجاوب جسدها لعناقه الذي كان يريد من خلاله الانتقام منها.

وقال مهدداً:

- ستبقين هنا ما دمت أريد ذلك، إياك ونسيان هذا أبداً. فلن أتركك ترحلين.

- لكنني حرة سيد مونتغمري.. عندما أهيىء نفسي سأرحل شئت ذلك أم أبيت.

كانت ابتسامته مريرة، فتساءلت متعجبة كيف لرجل كهذا أن يجتذبها:

- لن يساعدك أحد. لقد تأكدت من هذا بنفسي... أما الوصول إلى أقرب بلدة فمستحيل لأن المسافة بعيدة، ولا أظن أن فتاة ضعيفة مثلك قد تجتازها سيراً.

ردت بجمود:

- تظن أن النساء ضعيفات عاجزات. لكنني أعلمك سيد مونتغمري، أنني متى صممت على رأي أنفذه!

اتسعت ابتسامته تكشف عن أسنان بيضاء تتناقض مع اسمراره، فتمنت عندها لو هشمها له الجواد.

وقال ببرود:

- آنسة شيلتون.. وأنا لا أعدل عن رأي اتخذته أبداً!

- إذن ستكون معركة إرادة.. قد أكون امرأة، لكنني قطعاً لست عاجزة. وأنا مؤمنة بالمساواة بين الجنسين. وصدقني أنني لن أكون الخاسرة.

دفع نفسه ليقف:

- أمر مثير للاهتمام! يجب أن أعترف أنك تتقبلين الوضع أفضل مما توقعت.

سمحت لنفسها بالابتسام:

- لا تحكم على الكتاب من عنوانه أبداً... غرانت مونتغمري! والآن إذا كنت لا تمانع، أخرج من المطبخ لأنهي عملي.

وجدت صعوبة في التنفس فوجوده يكاد يكتم عليها أنفاسها. وأحست في الوقت نفسه بالانجذاب إليه.. كان جزء منها يريد منها أن ترحل والجزء الثاني يود بقاءها ليعرف بالضبط نفسية هذا الرجل الغريب.

* * *

٢ ـ نيران تشعلها أنامل

بعد مضي يومين على العمل في المزرعة، بدأت ماندي تعتاد على ما حولها. لم تكن تجد وقتاً لنفسها ومع ذلك وجدت أن العمل أكثر متعة مما توقعت. كان المنزل يثير الإعجاب، فهو متعة للعين، خال من الشوائب، لكل غرفة من الغرف الست حمام خاص، ملحق بها. لم تكن تقضي أكثر من دقائق في ترتيبها لأن معظمها خال، إذ لم يكن هناك من يشغلها إلا هي وغرانت. أما ماكس فكان له جناحه الخاص المبني وراء المنزل، وكان يعتني به بنفسه.

لم تكن ماندي تشاهد غرانت كثيراً إلا أثناء وجبات الطعام حيث كان ينظر إلى تصرفاتها نظرة صارمة وذلك خشية أن تصادق أحد الرجال.. وكان بعد وجبة العشاء يختفي عادة في مكتبته، ويبقى فيها حتى ساعات الفجر الأولى وكان رغم نومه المتأخر يستيقظ في الخامسة. ولقد تعجبت من قدرته على الحفاظ على هذا التوقيت الصارم.

في اليوم الثالث قررت أن تحقق ما وعدت نفسها به من السباحة في البركة. فقد أنهت عملها وأمامها ساعة قبل البدء بتحضير وجبة المساء.

ارتدت ثوب سباحة قرمزي اللون أظهر بشكل رائع كمال

أطرافها الطويلة وشموخ جسدها. لم تكن تخشى أن تصطدم بأحد الرجال لأنهم جميعاً يعملون بعيداً عن المنزل. ومع ذلك وضعت منشفة على كتفيها احتراساً، فما زال تحذير غرانت يطنّ في أذنيها.

سبحت حتى أرهقتها المياه، فاستلقت مستوخية على أحد المقاعد الطويلة البرّاقة وسرعان ما جف جسدها فوضعت زيتاً لتقي عنه حرارة الشمس التي هي في هذه البلاد أقوى بكثير من شمس بلادها. ثم عادت للاستلقاء على بطنها مغمضة العينين، تفكر في أن الحياة على هذا النحو ليست بسيئة.

تعلم أنه سيأتي الوقت الذي ستحتاج فيه إلى كسب بعض المال وذلك حين تصرف ما بقي في حوزتها من مال قليل، لكن حتى ذاك الحين لا يمكن أن تفكر إلا بالسعادة التي تشعر بها وهي تقضي وقتها في هذا المكان خاصة حين يبتعد الكريه الخلق غرانت مونتغمري عن ناظريها.

قد يكون غرانت مونتغمري رب عمل صارم.. لكنه كما يبدو يعامل رجاله معاملة عادلة، فهم يحترمونه. وما من أحد منهم كان سيستمر في العمل لولا معاملته الحسنة.

انتفضت ماندي فجأة وذلك حين سمعت صوت غرانت يقول بخشونة:

- لا أذكر أنني أذنت لك باستخدام البركة. من المفترض أن تعملي!

اضجعت على ظهرها، ووضعت يدها على عينيها ترد وهج الشمس. كان يقف أمامها بعداء شديد، جذاباً إلى أقصى الحدود. لكن هذا لا يعني أنها ستفقد عقلها من أجله! كبحت بصعوبة أعصابها:

- لقد أنهيت أعمالي.

لكن غرانت مونتغمري أثار ارتباكها دون أن يحاول حتى. فهي كلما رأته تقفز غريزياً إلى حالة الدفاع عن النفس. وفي هذه اللحظة، وهو يتهمها باستغلال وقت العمل لصالحها، تحس بالإثارة أكثر من أي وقت مضى.

- لكنني واثق كل الثقة بأن هناك أشياء أخرى تستطيعين القيام بها، فلم تكن السيدة كيلي تتوقف أبداً عن العمل، أتودين القول إنك أكفأ منها؟

جلست.. تحدق فيه بعداء:

- هذا ما يبدو...! فلو فتشت البيت لما وجدت فيه ما يقتضي أقلّ ترتيب أو توضيب.

كيف يجرؤ على توجيه هذا الكلام إليها؟ قال ببرود:

- سأقوم بهذا فعلاً إلا أن ذلك لا يعطيك الحق في استخدام البركة بغير إذن.

رفعت رأسها بخيلاء وقالت بمجرفة:

- أنت فعلاً أبغض رجل عرفته في حياتي! ما خطبك..؟ ألا تحب أن يشاركك أحد في ما تملكه؟ ما الضرر الذي قد أسببه لك؟ لا أحد حتى أنت يستخدمها وهذا مخجل، فكيف تُهمَل بركة كهذه.

- لو كان عندي الوقت الكافي، لأمضيت فيها اليوم كله. لكن، كما لاحظت لدينا عمل نقوم به هنا. وهو لا يترك لنا وقتاً للتكاسل في بركة سباحة.

- إذن، يجب عليك تنظيم وقتك بشكل أفضل. لقد احتجت إلى يومين فقط حتى أعتاد على نظام العمل... وأنا أنوي استخدام البركة يومياً بعد الظهر، هذا طبعاً بعد إذنك. لماذا لا تنضم إليّ؟

ضاقت عيناه حتى ما عاد يبدو منها إلا أهداب سوداء تكاد

تلتصق ببعضها بعضاً، والتوت شفتاه دلالة نفاذ صبر.

- النساء في غرفي.. لا يتقدمن أبداً بمثل هذه الدعوة.. أتحاولين الالتفاف حولي؟

صاحت به:

- وكأنما أجرؤ على هذا!

- اصنعي معي معروفاً واغربي عن وجهي.. فلدي الآن رغبة في استخدام البركة.. لكن وحدي.

ردت بنعومة:

- لا تقلق! لن أزعجك. فأنا راضية بالاستلقاء تحت أشعة الشمس.

قال بسخرية:

- لماذا؟ حتى تحترقي. ظهرك أحمر كالشمندر وسيؤلمك ألماً مبرحاً غداً.

عادت بهدوء إلى الاستلقاء على ظهرها وأغمضت عينيها:

- إذن سأحمّص واجهتي.

من يظن نفسه؟ كيف يحاول أن يبعدها عما تريد؟ يجب أن يعرف أنه اختار الشخص غير المناسب ليمارس عليه سلطته. فلقد تعلمت أن العمل في عالم الرجال يعني أن تكون المرأة خشنة ومصممة، وأن لا تدع أحداً يؤثر فيها.

ساد صمت قصير، فتحت بعده عينيها فإذا به قد ذهب.. وهذا انتصار جانبي. وهي المرة الأولى التي تنتصر فيها امرأة عليه كما يبدو.

واسترخت مرة أخرى، تصغي إلى تغاريد الطيور الصادحة على رؤوس الأشجار... التفت بها حناجر غناء متعددة: زقزقة عصافير وقوقأة دجاجة وصراخ صغير مدوي... فراحت تتساءل كم من

الوقت ستحتاج حتى تميز الأصوات المختلفة.

استلقت عشر دقائق كاملة ساهمة. ثم دخلت المنزل الذي أحست فيه بالبرودة بعد حرارة الشمس، فاستحمت بماء بارد مدة طويلة. لكن ما أزعجها أن غرانت على حق وأن ظهرها أصبح أحمر كعرف الديك، فطلته بمرهم خاص لمعالجة حروق الشمس، لكنه بقي يحرقها بشدة حتى بعد أن قصدت المطبخ لتحضير وجبة العشاء.

كانت قد تصادقت مع ماكس، فقد وجدت صداقته أسهل بكثير من صداقة مالك المنزل العدواني، وقد أُعجب العجوز بصحبتها واعترف لها أنه دهش حين علم أن غرانت شغّلها عنده مديرة منزل. لكنه أبدى استياءه عندما عرف أنه لن يدفع لها أجرها:

- قال إن هذا واجبي.. فأنا القريبة الوحيدة لأخي. لذا يجب أن أدفع ديونه.

سخر ماكس حانقاً:

- كيف يفكر في مثل هذا؟ لقد أصبح رجلاً صعب المراس منذ الحادثة. لكنني لن أوافقه على هذا. فإذا ضايقك كثيراً أخبريني لأتحدّث إليه.

هزت ماندي رأسها تبتسم بثقة:

- أحس بالسعادة، عوضاً عن الضيق.. فهذا منزل جميل.. ولقد أحببته. لكن لا تخبره بهذا، فقد يبعدني عنه.

تحدث الرجلان وقت العشاء عن أسطبل جديد ينوي غرانت بناءه. كانت وجهة نظر العجوز تختلف عن وجهة نظر غرانت، وما أدهش ماندي أنه رغم شدة تعلقه برأيه، وافق على وجهة نظر العجوز.

حل الظلام تلك الليلة بسرعة غريبة، فلم يدم الغروب أكثر من

نصف ساعة، ومع ذلك بقي الطقس حاراً... بعد أن اغتسلت خرجت لتتمشى في حديقة جميلة يحافظ على اخضرارها ري الرشاشات الدائرية الدائم. وكان فيها أزهار طائر الفردوس الذي تتعدد في الزهرة الواحدة ألوان كثيرة، وهذا النوع من الأزهار ذو رؤوس زرقاء ذهبية تشبه رأس العصفور، وهناك زهرة الراعي الحمراء الأكبر حجماً مما تعرفه، كما هناك الورود على مختلف أنواعها. أما النباتات التي تزهر عادة في مواسم مختلفة، فأزهرت هنا دفعة واحدة، إنها فعلاً أرض العجائب التي لا تصدق.

عندما سمعت صوت خرير المياه في البركة، توجهت نحوها فإذا بها ترى غرانت في هذه اللحظة يخرج من الماء. خطفت قوة جسده المليء بالعضلات أنفاسها. فلم تكن في جسده منطقة يزيد فيها الشحم ولو قليلاً. وقفت أمامه عاجزة عن إشاحة بصرها عنه.

هزّ رأسه مبعداً عنه الماء وهو لا يحس بأن هناك من يراقبه، فلمع رذاذ الماء بألف لون ولون تحت الأضواء.

وأخيراً شاهدها تقف فقال بصوت أجش:

- اذهبي من هنا!

- لماذا؟

- لأنني لا أريدك هنا. أليس هذا بسبب كاف؟

هزت كتفيها ودنت منه خطوات قليلات.

- إنها ليلة جميلة.. ولا ألومك إن رغبت في السباحة. فأنت تعمل جاهداً.

- وهل هذا شأنك؟

- لا أعتقد.

ودنت منه أكثر فأكثر... لكن ما إن اقتربت حتى فهمت عدم رغبته في أن تراه.. لقد كان صدره مصاباً بآثار جروح غير معقولة.

وهذا مثال آخر للعذاب الذي تلقاه على يد أخيها!

أغمضت عينيها تهز رأسها يأسى.. وتصاعدت حشرجة إلى حلقها حتى كادت لا تستطيع ابتلاع ريقها، وقالت بصعوبة:

- لم أكن أعلم.. آسفة جداً.

صاح بها:

- ملعون الأسف! وربما من الأفضل أن تنظري. أنت تعرفين الآن بالضبط من هو أخوك؟

أمسك كتفيها بأصابع فولاذية فهزها بغضب، وأجبرها على النظر إلى جسده المشوه، كما أجبرها من قبل على ملامسة وجهه.. فقالت بهدوء:

- لا أستطيع أن أفهم تصرفات أخي.. أنا حقاً لا أفهم.. وليت هناك ما أستطيع قوله. إلا أن القول يقف أمام فعله الرهيب.

- أنت على حق. إنه رهيب ولعين! ولقد كنت أعبى الناس لأنني استخدمت رايان. كان ذا طباع ملتهبة، لا يظهرها. فهل لديك طباع ملتهبة آنسة شيلتون؟

أبعدت ماندي وجهها عن الدليل الدامغ ونظرت إلى وجهه، فارعبها ما رأت فيه من وحشية، وأجابت بصدق:

- ما كنت أعرف أن لي طباعاً حتى وصلت إلى مزرعتك.. فما من أحد من قبل كلمني بالطريقة التي تكلمني فيها. لكن إذا كان هذا يواسيك، فسأعترف لك بأنني أفهم جيداً سبب تهجمك عليّ. وأعتقد أنه يجب علي الرحيل، فليس سهلاً ما عانيت منه.

صاح بها غاضباً:

- اصمتي بحق الله! إذا ظننت أن تلاعبك بعواطفي قد يجعلني أتركك، فأنت مخطئة.. أصبحت رعايتك للمنزل أمراً جديداً غير مألوف هنا. وأرى أنك تتمتعين به، لكن صدقيني، متعتك لن

تدوم. وسيصبح عملك حملاً ثقيلاً على كاهلك، وعندها ستبدئين بدفع ديون شقيقك، وستشتاقين للخروج إلى مقابلة الناس وإلى الخروج عوضاً عن بقائك في المنزل والاكتفاء برؤيتي.

- أو نسيت وجود ماكس والرجال؟ إن الصحبة لا تنقصني.

- أنت الآن أبعد من منال أي منهم باستثناء ماكس. أما ماكس فعجوز لا يشكل خطراً.

- وهل تظنني أهوى صحبة الرجال؟ إذا كان هذا ما تعتقده فانسه.

كان كلامها بارداً حازماً، فارتفع حاجباه بسخرية:

- أتلمحين إلى أنك لا تهتمين أبداً بالجنس الآخر؟ وإلى أنك إحدى هؤلاء النسوة العاملات اللواتي يضعن مستقبلهن العملي على أي شيء آخر سواه؟ لست من النوع الذي يبدو عانساً.

- ما عرفت أن هناك نوعاً محدداً. وأنا واثقة بأن ما من امرأة قد تبقى دون زواج باختيارها. ولا أشك إلا أنني في يوم ما سأتزوج وأنشيء عائلة، لكن هذا اليوم لم يحن أوانه بعد، لأنني لم أقابل حتى الآن رجلاً أحس بأنني لا أستطيع أن أعيش بدونه، فمعظم الرجال يسعون وراء أمر واحد... وهذا بالنسبة لي غير وارد.

كشّر عن أسنانه ساخراً:

- الأنثى الفاضلة؟ لا أصدق هذا ببساطة.

نظر إليها طويلاً قبل أن يمد يده ليمسك خصرها بيد ويلمس الأخرى تحت شعرها الكثيف، مانعاً عنها أي مجال للهرب. ضمها إليه عامداً ومع أن عقلها كان غاضباً إلا أن من المستحيل عليها أن تمنع أحاسيسها من التحرك.

وبدأت يداه تستكشفان عنقها إلى كتفيها، فخصرها حيث شدها

ثانية إليه. كانت بشرتها حساسة تؤلمها بسبب حروق الشمس إلا أن نار الرغبة كانت تلسع أعصابها، فتجاهلت الحروق الأولى، غير راغبة إلا في التعلق به، وفي غرس أصابعها في شعره الكثيف الأسود، لتشعر برأسه تحت راحة يدها.

لكن تعقلها قال لها إن هذا هو بالذات ما يتوقعه منها، ويجب أن تتحرر منه قبل أن تفقد السيطرة على ذاتها، فما كان منها إلا أن قاومته بعنف ولده اليأس.

تركها على مضض، فلاحظت تحت الأضواء الاصطناعية أن وجهه شاحب، وأن خطوط الألم تشق زاويتي فكه وفمه.

سرعان ما فهمت معاناته فقد حسبها تبعد نفسها عنه اشمئزازاً منه. فقالت تدافع أسفة:

- ألمت ظهري الذي حرقته أشعة الشمس.

- عذر مقنع!

حدق فيها غاضباً ثم توجه نحو المنزل.

راقبته مانديي بحزن.. إنه بندوب أم بغيرها رجلاً ملؤه الحيوية والرجولة، رجل لم تقابل من هو نظير له قط. كان تجاوبها غير إرادي وها أعصابها ما زالت متوترة دون أن تعرف السبب. عادت إلى غرفتها فجلست قرب النافذة تراقب السماء المرصعة بالنجوم. وتصغي إلى صرير صراصير الحصاد الذي لا يتوقف على أشجار الصنوبر.

ليت أفكارها هادئة كما الليل. فلقد أزعجتها ردة فعل غرائز.. فعلى كتفيه عبء كبير أثقل من عبء الحطب، وهي لم تساعده على التخفيف من وطأته أبداً.

تذكرت رايان قبل عشر سنوات لم يكن رفيقاً لها يومذاك بل كان يستخدمها، لتحمل أغراضه ولتجلبها له، وكان يمازحها

بإزعاج لا يرحم، لكنها لا تذكر أنه كان حقوداً. ربما كان، بطريقته الخاصة يحبها، لكنه كان متحفظاً، وحين هاجر لم تفتقده كثيراً.

أزعجت أفكارها طرقه على باب غرفتها.. وقبل أن ترد انفتح الباب مدفوعاً ودخل غرانت مونتغمري. فقفز قلبها خشية لدى رؤيته.. لكن يجب أن تقتني قلبها، وتنسى جاذبيته، وتنسى أنه أول من جعلها تحس بأنها أنثى...

- كيف تدخل علي دون أن آذن لك؟

- أحمل إليك مرهماً لحروق الشمس. إنه تركيبة خاصة لتخفيف الألم. اخلعي قميصك لأدلك ظهرك.

حدقت فيه دهشة، ونبضات قلبها تضج. أمن الغضب، أم من الإثارة التي ولدتها لمسات هذا الرجل على جسدها أكثر من مرة؟

- لديك بعض الوقاحة! لكنني أقدر لك حسن ظنك بي... وسأفعل هذا بنفسي. شكراً لك.

ومدت له يدها. فابتسم:

- لا تكوني متزمتة.. فلن أستغل وضعك. فلقد أثبت رأيي فيك... تعالي.. فصبري بدأ ينفد.

تمتمت حانقة:

- هذا إذا كان لديك صبر أصلاً.

ونزعت القميص القطني ثم أعطته ظهرها على مضض. ما إن لامس المرهم البارد بشرتها حتى انتفضت. كانت تسمع تهدّج أنفاسه الحادة فعلمت أنه يفكر.. يا الله.. كم يسهل إغضابه. لكن لا جدوى من أن تقول إنها لم تعن شيئاً بحركتها اللا إرادية تلك... قال لها:

- إذا كنت تريدينني أن أقوم بعملي كما يجب، فابقي جامدة، أرجوك! فليس بالأمر العجيب أو الجديد لي أن أرى جسد امرأة..

وهذا لا يعني لي شيئاً.

سألته بصوت أجش:

- أعتقد أنك في يوم من الأيام كنت تجد صعوبة في صد النساء عنك؟

ما عادت مهتمة بإيلامه فقد آلمها بكلامه، ومن الطبيعي أن ترد. جمدت يداه على ظهرها، وأحست بالتوتر يجتاحه. وشاهدت لهيب الألم في عينيه وذلك من خلال انعكاس صورته على المرآة أمامها... لكنه أجاب بتوتر:

- كان لدي حصة لا بأس بها.

- وأصبحت الآن منيعاً ضدنا؟

- أجل.. وما فائدة العكس؟

- أظنك تقسو على نفسك من غير داع.. فأنت لا تعطي نفسك فرصة. هل خرجت مع أي فتاة منذ.. منذ الحادثة؟

كانت تعلم أنها تتحدى غضبه، لكن ما اللذي ستخسره؟

- لست مضطراً لهذا. أعرف.

آلمتها أصابعه على ظهرها، وعلمت أنه لا يحس بأنه يؤلمها. كانت تحس بضغط كل اصبع على حدة وعلمت أن أصابعه ستترك آثارها على ظهرها في الغد. وأجابت:

- أنت لا تعرف شيئاً.. هذا كله من وحي مخيلتك.

التقت عيونهما عبر المرآة.

- من وحي مخيلتي؟ انظري إلي.. وقولي لي.. هل أتخيل ما فعله أخوك بي، يا الله! ليته هنا الآن!

تحركت أصابعه من ظهرها إلى عنقها ليضغط عليه بوحشية فجائية.

- كنت سأقتله!

أحست بضربات قلبه الوحشية وبحرارة جسده. فخافت وحاولت مقاومته لتحرر نفسها صارخة:

- أنت مريض! فلا تضع اللوم كله عليه، لا أظنه كان يقصد أن يفعل بك هذا كله.

- صحيح؟.. أهذا كل ما تعرفينه؟ ماذا يتوقع المرء من خريج السجون.

- ماذا تعني بخريج السجون؟

أحست وكأن شيئاً يحطم صدرها، ويجبر الهواء على الخروج من رئتيها. أدارها غرانت نحوه:

- لم تكن هي المرة الأولى التي يقع فيها في المتاعب.. وكنت أعلم هذا حين وظفته، ومع ذلك كنت مستعداً لمنحه فرصة وكانت هذه أكبر خطيئة ارتكبتها في حياتي.

- أنت تكذب!

راح كل عرق في جسد ماندي ينتفض، واندفع الدم وتجمع في رأسها، حتى شعرت بأنها ستفقد الوعي.. رايان مجرم؟ هذا مستحيل! هناك خطأ ما دون شك.

- بل صحيح.. وإذا كنت تتصورينه قديساً فستواجهين صدمة كبرى، لأن لائحة اتهاماته يطول ذراعك. المرة الأخيرة التي دخل فيها السجن كان قبل أن أتخذه عاملاً عندي، فبعد أن أمضى فيه ستة أشهر رفض الجميع توظيفه.

حدقت ماندي فيه بعينين معذبتين. وكانت المرة الأولى التي تحس فيها بالامتنان لذراعيه اللتين تمسكان بها، فقد كانت على وشك الانهيار، وقالت بصوت مختنق:

- لن أصدقك.. لن أصدق!

لكن الاقتناع كان بعيداً عن صوتها!

- ليس أمامك خيار آخر.

- ليس رايان.. ليس أخي.. لن يفعل هذا...

صمتت بعد أن تذكرت شيئاً حيّرها منذ سنوات طويلة وبدا ذا معنى الآن.

يومذاك لم تكن قد تجاوزت الخامسة من عمرها، لكنها تذكرت الوجه الأحمر المكتئر لشرطي طرق باب منزلهم. وقتذاك جرت أحاديث كثيرة متجهمة، بعدها طرد رايان مدة طويلة.. وحين كانت تسأل عنه كان يطالعها الصمت، ولا ترى إلا عيني أمها حمراوين من أثر البكاء.. ونسيت هذا كله فيما بعد.. ولم تذكره إلا الآن.

قطع صوت غرانت الساخر الأجش عليها أفكارها:

- هل تعيدين النظر؟

- بل تذكرت أمراً.

- وهل جعلك هذا تظنين أن الموقف محتمل؟

- وماذا ارتكب في تلك المرات التي زج نفسه فيها بالمشاكل؟

- كان يسرق ويختلس، على نطاق ضيق عادة، من رب عمله. إنه شاب فاسد دون أدنى شك. لم أرَ في حياتي مجنوناً مثله. لقد دفع «سلاوتون» الجواد الأسود نحوي بجنون رهيب. فنسف بذلك الفرصة الأخيرة التي كان يتمتع بها. أما الآن فأصبح اسمه على اللائحة السوداء. إن وضعت يدي عليه...

نظر إليها فجأة وأدرك أنها ما زالت دون قميص، فقال بخشونة يبعدها عنه:

- ارتدي قميصك.

لم تكن وقتذاك مهتمة بما إذا كان يراها مرغوبة أم لا. فأفكارها كانت مع رايان، أخوها مجرم! إنها لا تطيق التفكير في

هذا. وهي تحمد الله لأن والديها ماتا قبل أن يكتشفا فعاله. لقد كان يكتب لهم رسائل مبهجة، يتبجح بها بمدى نجاحه. ولم يشك أحد منهم في أنه بدأ فعلاً بداية جديدة، ولا بد أن رسائله توقفت حين كان في السجن.. وبعد ذلك خجل أن يراسلهم.

وماذا عنها هي الآن؟ هل ستلصق وصمة العار بها كذلك؟ يعتقد غرانت مونتغمري أن عليها تسديد ديون أخيها.. والموقف كله غريب.

قالت مخطوفة الأنفاس، مضطربة في محاولة منها للسيطرة على مشاعرها:

- يجب أن أجد رايان... يجب أن أكلمه.. إنه بحاجة للمساعدة.

- المساعدة؟ لقد تجاوز مرحلة المساعدة. منحته أعظم فرصة عرضت عليه على وجه البسيطة... وماذا فعل؟ لقد كان يتقاضى أجراً محترماً، ولم يكن بحاجة للسرقة. مشكلته معاقرته الخمر ومعاشرته النساء.

- لكنني أريد أن أجده مهما كان الثمن فيجب على الأقل أن يعرف بموت والديه.

رق وجهه ثانية بل جزءاً منها:

- كان موتهما شديد الوقع عليك. وها أنت الآن تكتشفين أن أخاك ليس طيباً؟ ليست الحياة بمنصفة، أهو كل ما تبقى لك من العائلة؟

- كان كل من والدي ووالدتي وحيد أهله. وهما لم يرزقا إلا أنا ورايان.. أعتقد أن لنا أقرباء بعيدين في مكان ما لكنني لا أعرف شيئاً عنهم.. وأنا أريد رايان.

عاد وجهه للانقباض:

- وأنا كذلك أريده. إن بحثك عنه لفكرة صائبة. فإذا وجدته أحضريه لي.

- لماذا؟ أتنزل به عقابك الخاص؟ لا.. شكراً لك! إذا وجدته فسأسعى جهدي لئلا تراه.

- لا أظن أن لديك أملاً في إيجاده. ولا أظنه إلا قد ابتعد كثيراً لئلا أطاله. ولن أستغرب إذا ما علمت أنه قد غادر البلاد.

لم تكن ماندي قد فكرت في هذا، فنظرت إلى غرانت بريبة:

- اوه.. ماذا لو عاد إلى الوطن؟ لن أطيق أن يعرف بخبر موت والدينا من غريب.

أمسك بكتفيها دون وحشية هذه المرة:

- حقاً.. لا أظنه قد غادر، لأن تذاكر السفر جواً باهظة، وهو لم يتمكن قط من ادخار مبلغ كهذا. لا... هو ما زال هنا، وأنصحك بأن تنسيه ماندي. فهو لا يستحق أن يخطر عليك قلبك.

كانت هذه المرة الأولى التي يناديها باسمها، فنظرت إليه بعينين ملؤهما الألم.

- ألديك اخوة أو اخوات سيد مونتغمري؟

هز رأسه نفياً، فأكملت:

- هذا ما ظننته، لذلك لا أحسبك تشعر بما أشعر. أنت غير إنساني حين يصل الأمر إلى المشاعر. أنت مشغول بالتحسر على ذاتك حتى بت لا تفكر في مشاعر الناس.

رد عليها بغضب وقد عادت أصابعه قاسية على كتفيها:

- حين أطلب رأيك أسألك.

انسلت من بين يديه وتمتمت بغيظ:

- أعتقد أنه حان أوان خروجك من غرفتي.

ظهر في عينيه شرّ أسود وهو يمعن النظر فيها وكان شيئاً ما

يحثه على وضع أصابعه حول عنقها ليخطف منها حياتها، فهي تذكره بشكل حي بالرجل الذي شوّه حياته.

لن يخدم غرانت نفسه باحتجازها هنا، لأنه بذلك يزيد عذابه ويضنيه.

ليت هناك طريقة تستطيع من خلالها قطع الاتصال بينهما، لكن ثمة شيء مغناطيسي في نظرته إليها، ففي عينيه لمعان مشاعر لم تفهمها.. وقد أوقعها تحت سحره وكأنها مربوطة إليه بسلاسل من فولاذ.

فجأة ابتعد عنها، مضموم الشفتين، وقال بهمس بغيظ:

- إذا كان ذلك الميل الأرعن لتعقب آثار أخيك يستحوذ عليك فانسي الأمر. فلن تغادري المزرعة حتى آذن لك!

وإذا كان هناك أي شيء قد يدفعها إلى القتال فهو هذا الكلام:

- لا أظنك يا سيد، قد تمنعني إذا ما اتخذت قراري وصممت عليه. لكنني في الوقت الحالي قانعة جداً بالبقاء في مزرعتك.

- ولماذا؟

أخذها على حين غرة بسؤاله هذا، فتساءلت ما إذا كانت تجرؤ على الاعتراف بأنه هو من يجذبها للبقاء؟ إنه رجل فظ، يتربص بها متحيناً الفرصة المناسبة، لكنها أيضاً تتحين الفرصة حتى ترى ما تحت هذه القشرة التي يغلّف نفسه بها.

إنها لم تطلب من الرجال حتى الآن أفضليات معينة ولم تتوقع منهم شيئاً.. ولهذا احترمها الرجال الذين عرفوها، إذ كانت معهم على حد التساوي.

لكن ما من طريقة تجعلها متساوية مع غرانت مونتغمري. وهو لا يألو جهده في تأكيد هذا.. إنه ينوي أن يخضعها شاءت هذا أم أبته... كيف لامرأة أن تنظر إلى رجل مثير مثل غرانت مونتغمري

دون أن تتأثر؟ كان جرحه يزيده جاذبية بدل أن ينفرها منه، إذ كان يعطيه مظهر المحارب التاريخي، فيبدو بذلك أقسى وأروع مثالاً للرجولة.

كانت دقات قلبها تنتفض حين تكلمت:

- لديك منزل جميل سيد مونتغمري. لكنني أشعر بأنني معاقبة بجريمة لم أرتكبها.. فأنا أشعر بأنني في عطلة.

رد بحرارة:

- في هذه الحالة.. سأفكر في عمل إضافي لك، عمل يشغل ساعات فراغك، عوضاً عن قضائها في بركتي.

رفعت رأسها تستعد لرمي رد لاذع في وجهه.. لكنه كان قد ارتدّ على عقبيه وخرج من الغرفة التي صفق بابها بقوة وراءه.

* * *

٣ - بحيرة الأمل

استغلت ماندي الفرصة الأولى التي سنحت لها للتحدث إلى ماكس. كان لديها إحساس بأنه قد يعرف شيئاً عن أخيها، كان رجلاً نادراً ما يتطوع لإعطاء المعلومات، لكنه كان راغباً في الكلام حين استدرجته.

غرانت عادة آخر من يغادر مائدة الفطور، لكنه في هذا الصباح اختفى قبل جميع الرجال، مما سبب ارتفاع حواجب الكثيرين، وعندما غادروا لم يبق معها إلا العجوز.

جلست ماندي على المقعد الخشبي بقربه وقالت:

- ماكس.. أين ذهب رايان؟

نظر إليها بسرعة بعينين زرقاوين شاحبتين وحائرتين في آن:

- ولماذا تحسينني عارفاً بمكانه؟

- إنه شعور... فلا بد أن شخصاً ما يعرف.

- منذ أن هرب ما عدنا نعرف عنه شيئاً. أود مساعدتك لكن كيف أساعدك وأنا لا أعرف شيئاً. أعلم أنه أخاك، لكنه لا يشبهك، كما لا أشبه أنا غرانت.

ردت بهدوء:

- إذا كنت أختلف عنه فهذا لا يعني أنني أكرهه وقد حاولت أن أشرح هذا لغرانت لكنه لا يريد الإصغاء بل يقول بشكل متصل إن

رايان رجل عاطل لذا علي نسيانه. لكن الدم لا يتحول إلى ماء.. أتفهمني؟

هز رأسه وهو يعبىء غليونه بالتبغ، ثم أشعله وسحب منه أنفاساً عميقة حتى رضي عنه، قال والدخان يغطي وجهه:

- لدي عائلتي، وأنا أحبها أكانت سيئة السيرة أم حسنة. نعم أفهمك. لكنك تسألين الشخص غير المناسب.. فلا أحد في هذه المزرعة يستطيع إخبارك عن مكان وجوده.. وليس من الخير لرايان أن يظهر، فما غرانت الوحيد الذي يطلب دمه، بل كل عامل في هذه المزرعة أيضاً، ولا أحسبني أتمنى أبداً أن أكون في موقعه.

- وأنا لا أحب أيضاً ما فعله. لكن قد أقدر على مساعدته، فما عدت شقيقته الصغيرة بل أصبحت امرأة.. وهو بحاجة لمن يهتم بأمره، ولمن يرعاه، حتى لا يكرر ما ارتكب من أخطاء.

أطبقت يده الناضجة عرقاً على يدها:

- إنه لا يستحقك ماندي. لو كنت هنا لما حدث ما حدث. لقد كان مجنوناً.

- ها قد قلتها.. أرأيت.

وأمسكت بيده الخشنة بين أصابعها الناعمة متابعة:

- أرجوك ماكس، فكر ملياً. فلا ريب في أن هناك من يعرف مكانه.

تنهد ماكس بعمق، وتصاعدت بسمة حزينة بطيئة إلى فمه.

- سأسأل.. ولن أعدك فمعظم الناس يمتنع عن التطرق إلى هذا الموضوع، فلا يحب أحد التورط.

وكان على ماندي أن تقنع بهذا القدر.

عندما حان وقت الغداء، ظنت ماندي أن غرانت نسي تهديده... إلا أنها وبينما هي تغير ملابسها استعداداً للذهاب إلى

البركة سمعت صوته الأجش ينادي باسمها. فاتجهت نحو مصدر الصوت وإذا به أمام باب مكتبته، يسد المدخل بجسده الضخم، وقد أبعد الجهة المجروحة من وجهه عن نظرها، ولم تكن هي المرة الأولى التي يبعدها وليته لا يفعل.

- أتجيدين الطباعة؟

نظرت إليه ببرود:

- ومتى كانت الطباعة جزءاً من تعليم الهندسة؟

ضاقت عيناه بحدة:

- أنا أسألك!

هزت كتفيها تتظاهر بعدم الاكتراث:

- نعم. أستطيع الطباعة. أعتبرها مهارة مفيدة.

- حسناً.. لدي كومة رسائل هنا تحتاج إلى رد.. كنت سأطبعها بنفسي، ولقد سجلت الملاحظات على كل واحدة منها.. أتظنين أن بإمكانك تحقيق هذا؟

- أستطيع القيام بأي شيء أصمم عليه.. لكنني لا أرى سبباً يحدوني إلى القيام بأي عمل لك. لماذا لا تستأجر سكرتيرة؟

- لأنني لا أريد أنثى في المزرعة.. وأنت تفهمين السبب طبعاً.

- ثمة رجال يعملون في حقل السكرتاريا. ولا يحق لك أن تلزمني بالعمل وقت راحتي.

- ليس لك عليّ حق. أنت هنا لتنفذي ما أريد، ولتسددي دين رايان.. إياك ونسيان هذا أبداً.

أحست بالإثارة تسري في عروقها، إذ كان التوتر بينهما كهربائياً.. ربما من جهتها فحسب. راح قلبها يخفق ألماً ومع ذلك قالت له بمرارة:

- ولا تدعني أنسى، هل لك أن ترشدني إلى أوراقك.

تبعته إلى الطاولة الكبيرة القابعة قرب النافذة.. كانت الآلة الكاتبة جاهزة. ما إن أصبح على مقربة من المكتب حتى راح يشرح لها كل شيء، ثم خرج وتركها وحدها واقفة مترددة تجد صعوبة في تصور أصابع غرانت الضخمة تستخدم هذه المفاتيح الناعمة.

غرانت رجل عملي، يهوى العمل خارج المنزل، فكيف كان يقوم بأعماله المكتبية بنفسه. لا شك في أنه أحس بالراحة حين ساعده رايان.. ولكن أخاها للأسف خان الثقة ولولا تلك الخيانة لنجح في عمله وأفاد نفسه.

دهشت لأنها وجدت متعة في الطباعة.. فمع أنها كانت تسخر من العمل المكتبي، لأنه رتيب ممل، وجدته اليوم مثيراً للاهتمام.. كانت معظم الرسائل طلبات من أشخاص يرغبون في إرسال أفراسهم للاستيلاد.

لكن عملية الاستيلاد كانت دقيقة وصارمة وفي مواعيد محددة. ما من شيء متروك للفرص. كل شيء منظم كل التنظيم. وثمة رسالة يهنئه فيها أصحابها على ترويض فرس مشاكسة، ويرفقون التهنئة بوعد بالمشاركة بنصف الأرباح إذا كان المهر الذي ستلده بارعاً في السباق كأمه.. وكان رد غرانت أن يرجو إرسال المال إلى مؤسسات خيرية يختارونها بأنفسهم وكرمه هذا أدهش ماندي.. ولم تكن الرسائل جميعها تتعلق بالمزرعة بل كان بعضها يختص باستثمارات في أماكن أخرى، أغنام وأبقار، وحصص في مناجم معادن وذهب، وهذا يعني أنه رجل ثري.

لكن، يبدو أن تربية الخيول تجري في دمه، فهو لا يبدو سعيداً إلا حين يقضي يومه خارجاً. وها هي الآن تراه من النافذة يقود جواداً جميلاً رائعاً ألقى عليه السرج، ثم ربطه واعتلى صهوته

وكأنه يقوم بهذا العمل منذ ولادته.

انطلق بالجواد.. ومضت بضع دقائق قبل أن تدرك ماندي أنها توقفت عن الطباعة لتحدق فيه. لكن حين عادت إلى عملها اكتشفت أنها ترتجف.

خاب أملها حين عرفت أنها غير قادرة على إنهاء الرسائل قبل وقت العشاء. كانت تود أن تؤثر فيه بكفاءتها. لكنه لن يتأثر بكل تأكيد إذا لم يجد طعاماً أمامه حين ينهي يوم عمله!

ألم تقل لها أمها إن أقصر طريق إلى قلب الرجل هو معدته، وأمها كانت طباخة ماهرة، كما تعلم.

حمدت الله لأنها علمتها الطهو وفنونه. ولولا ذلك لما تمكنت من النجاح في العمل الذي وقع فجأة على رأسها. وما توقعت قط أن يتم امتحان قدراتها ومهارتها في الطهو بهذه الطريقة.

بقيت في اليومين التاليين مشغولة كثيراً حتى نسيت التفكير في غرانت ورايان وفي أي كان. لكن ذات صباح، جاء ماكس إلى المطبخ الذي كانت تعمل فيه. فنظرت إليه قلقة تمسح شعرها عن وجهها بظاهر يدها. حين رآها تغضن وجهه اللطيف قلقاً:

- أنت تجهدين نفسك.

- لا أمانع، فالعمل يمنعني من التفكير في رايان.

- رغم إعجابي بغرانت إلا أنني أراه مجحفاً بحقك لأنه يطلب منك تسديد ديون أخيك بهذه الطريقة. فإن كان أخوك شاباً شريراً فما شأنك أنت. أعتقد أن عقل غرانت قد التوى في نقطة ما لكنك غبية لأنك تستسلمين له. لماذا فعلت هذا؟

- لا أعتقدك ستصدقني إذا قلت لك إنني أتمتع بما أعمل؟

- لن أصدقك.

- لكنها الحقيقة، لن أتمتع بها إلى الأبد بالطبع. لكنني أجده

حالياً عملاً جديداً.

- عملاً جديداً.. هه؟ أرى أنك تحاولين أن تثبتي أنه لن يتمكن منك مهما حاول جاهداً.

- أوَما أقصده واضحاً إلى هذا الحد؟ اسمع أيها العزيز لا أحسبك جئت إلى المطبخ لتحدثني عن هذا الموضوع.. أتديك أخبار عن رايان؟

كشر ماكس عن أسنانه:

- لدي عنوان امرأة قد تساعدك، وأعتقد أن الأمر جدير بالمحاولة.

عقدت ذراعيها حولها وطبعت قبلة على خده ثم تناولت منه الورقة التي كتب عليها العنوان ودستها في جيبها:

- أحبك ماكس. أنت حبيب!

بدا حرجاً. وقال متجهماً:

- تستحقين هذه الفرصة. لكن أتمنى أن تدركي ما أنت مقبلة عليه، فلو اكتشف غرانت أنني أعطيتك العنوان، فسيسلخ جلدي حياً.

بقيت ماندي ذاك اليوم تقلب النظر بحثاً عن طريقة ما للخروج من المزرعة. عنوان المرأة هنا في أوكلاند. فما السبيل للوصول؟ ترى أوَ يصدقها غرانت لو قالت له إنها بحاجة لشراء بعض الأغراض، أم يسيء فيها الظن ويعتقدها تسعى للهرب.

بعد الغداء، حين تأخر في المطبخ ليدخن سيكاره كالعادة تقدمت منه، خافقة القلب متضرجة الوجنتين:

- أود الخروج من المزرعة. أريد شراء بعض الأغراض. أحتاج أشياء أشتريها.. هل لي أن أستعير سيارتك؟

رد متصلباً:

- وكيف لي أن أعرف إن كنت ستعودين؟ فقد أفقدك، وأفقد سيارتي.

نظرت إليه ببرود:

- عليك أن تثق بي.

- هذا ما لست مستعداً له.

ابتعدت عنه:

- أنت رجل صعب المراس سيد مونتغمري.

- لأنني أعرف أنك قد تقومين بأي شيء حتى تجدي أخاك... وأعذارك لا تخدعني.

- البحث عنه في أوكلاند كالبحث عن ابرة في مخزن قش. لا أريد إلا أن أشتري حاجياتي.

- في هذه الحالة.. سأرافقك بنفسي.

اتسعت عيناها لأن هذا يفسد عليها كل خططها. وهو لن يتركها تغيب عن ناظريه، فردت بهدوء:

- لا حاجة لهذا. أعدك بأن أعود.

- وعد من وعود آل شيلتون؟ إمّا أن أرافقك وإما أن تبقي في المزرعة. الخيار لك.

- أنا لست كاذبة سيد مونتغمري، لكنك لا تترك لي بديلاً.

قد تتمكن من الزوغان منه.. يجب أن تعرف مكان تلك الفتاة حتى تسألها عن مكان رايان، فهي لا تريد أن تتفاءل متوقعة أن تجده يسكن معها.

قال لها بجفاء:

- فليكن موعدنا غداً. سنتطلق حالما ينهي الرجال فطورهم. أما طعام الغداء فسأتركه لماكس.

لم تشاهده ثانية حتى صباح اليوم التالي عندما أتى يتناول

فطوره. كانت ترتدي تحت مبدعتها فستاناً قطنياً صيفياً ليموني اللون يبرز اللون البرونزي الذي اكتسبته.. وما ان غادر الرجال المطبخ حتى سألها كم من الوقت ستحتاج حتى تهيىء نفسها. فخلعت المبدعة وكشفت عن فستانها الجميل:

- أنا جاهزة. أمهلني لحظات حتى أحضر حقيبتي.

عندما ألقت نظرة أخيرة على نفسها في المرآة علمت أنها أخطأت في رفع شعرها إلى الوراء، فهي بهذا تكشف عن قسم كبير من عنقها النحيل الجميل، وتبرز جمال جسدها. بعد تفكير أضافت قرطين ذهبيين لكنها سرعان ما نزعتهما بغضب، فلن يلاحظهما غرانت، الذي فقد كل اهتمام بالنساء.

كانت سيارته كبيرة فخمة، ذات مقعد واحد قرب السائق. فسرها وجود مسافة كبيرة بينها وبين هذا الرجل الخطير.

قاد السيارة على الطريق الوعرة دون أن يتكلم أي منهما حتى وصلا إلى الطريق المعبد السهل. فسألته:

- أتخرج دائماً؟

حينما التفت إليها، تأملته، لم يكن وسيماً بكل ما للكلمة من معنى، له جاذبية قوية لا تنكر... قالت له بعد أن تأخر رده:

- لا تجهد نفسك من أجلي.

- لا تقلقي.. لن أجهد نفسي من أجلك. لدي عمل هناك. وإلا لما سمحت لك بالذهاب.

- أيها الخنزير! لا يحق لك معاقبتي على ما ارتكبه أخي!

رد عليها ليدهشها رده:

- لا أدري لماذا أشعر بأنك تتمتعين بهذا. فأنا لم أنلق كلمة تذمر رغم ما أضعه على عاتقك. ولا أعتقد أن هذا العمل يفوق طاقتك لأنه لو كان كذلك لأبديت اعتراضك، فما أنت من الذين

يرضخون ويقبلون بأوضاع كهذه وهم صامتون.

نظرت إليه ببرود:

- لا أدري من أين كونت هذا الرأي.

ابتسم دون مرح:

- قد يدهشك ماندي رأيي فيك.

- هلاّ تكرمت فأنرت ظلامي.

- لا.. فالوقت وحده قادر على أن يثبت من أنت.

سارا مسافة أخرى طويلة بصمت كامل، حاولت ماندي خلالها التركيز على المناظر الطبيعية خارجاً. فهنا أزهار برية وهناك قطعان من الماشية تبحث عن المرعى.

وجدت صعوبة في تركيز اهتمامها على شيء آخر عدا ذلك الرجل القاعد على مقربة منها، فقد كان يحتل أفكارها، وجوده يغلب على أحاسيسها لذلك لم تدهش حين أحست بصعوبة في التنفس.

سألته في محاولة منها لفتح حديث بينهما:

- ألديك راديو في السيارة؟

مد يده فحرّك زراً، بعث موسيقى حادة النغمات حية... فرفع الصوت حتى أصبح الحديث مستحيلاً.. وهذا ما لاءم مزاج ماندي التي كانت بحاجة إلى ما يصد وجوده المدمر عن تفكيرها.

حين اقتربا من ضواحي المدينة، احتاج غرانت إلى تركيزه كله حتى يستطيع تجاوز ازدحام السير الشديد وصولاً إلى المكان المنشود. فأخفض صوت الراديو، وأخذ يتمايل بالسيارة يمنة ويسرى يخرج ويدخل بين السيارات.

حين وصلا إلى المركز التجاري، أصبحت السيارات ملتصقة حتى ظنت ماندي أن ما من أحد يستطيع الخروج بسيارته، لكن

غرانت كان يعرف تماماً المكان الذي يقصده، فما هو إلا وقت قصير حتى أوقف السيارة التي ترجلا منها.

- إلى أين تودين الذهاب بالضبط؟ أعتقد أن المركز التجاري جيد، ففيه ما تحتاجين من أشياء عصرية كما فيه محلات للأثريات والتذكارات.

- أحب التجول قليلاً، فعندما وصلت إلى اوكلاند قصدت شقة رايان القديمة فوراً، ثم ركبت سيارة أجرة إلى مزرعتك. فلم أتمكن بذلك من رؤية معالم المدينة ومن المؤسف ألا أراها الآن.

- أوافقك الرأي، اشتري ما تحتاجين إليه ثم استعدي فسأقوم بدور المرشد السياحي. لكنك لن تستطيعي مشاهدة إلا بعض الأماكن، إذ تحتاجين إلى أسبوع كامل حتى تتعرفي إلى معالم المدينة.

وعندما رأت أنه لن يتركها وحدها، خفق قلبها بعنف:

- ألم تقل إن لديك عملاً تقوم به؟

- لدي مشكلة تأمين أود تسويتها، ليس إلا. لك أن ترافقيني إذا شئت.

- لكنني أفضل أن أتجول وحدي. فلا أتصورك تهوى ما أهوى. أود شراء بعض الأثواب الصيفية والسراويل، ولا أظنك إلا سئماً من النظر إلى مثل هذه الأشياء.

- صحيح؟ هل سأضجر ماندي؟ أنت لا تعرفين إلا القليل عني! أظنني سأجدها مثيرة للاهتمام، خاصة إذا عرضتها أمامي بنفسك.

وضع ذراعه دون كلفة على كتفيها، فلمّا شعرت بالإثارة من لمسته انسلّت منه. ضحك، وكرهته بسبب هذه الضحكة الساخرة... إنه يعرف تماماً ماذا يفعل، والخلاص منه أصعب مما

تصورت.

تجولا من مخزن إلى مخزن، فاشترت أشياء لا ترغب فيها وكانت في تلك الأثناء يقظة تتحين الفرصة المناسبة. لكن هذه الفرصة لم تحن إلا حين كانا في شركة التأمين، فقد شرح مشكك للموظف فدعاه إلى الداخل لمقابلة المدير. لكنه التفت إليها:

- تعالي.. فلن نتأخر.

- سأنتظرك هنا.

لم يكن أمامه ما يستطيع فعله في غرفة مكتظة بالغرباء، لكن عينيه الباردتين القاسيتين حذرتاها دون قيد أو شرط من المتاعب التي ستواجهها إن ذهبت.

سرعان ما ركضت تجتاز الدرج وصولاً إلى الشارع الذي نادت فيه سيارة أجرة، أعطت صاحبها عنوان ڤاليري تشانوم، وما هي إلا دقائق حتى أوصلها، فنقدته أجرته دون أن تفكر في إمكانية عدم وجود الفتاة.

بعد أن رنت جرس الباب عدة مرات دون أن تتلقى الرد، أخرجت ورقة وقلماً من حقيبتها وكتبت رسالة قصيرة تطلب فيها من الفتاة أن تعلمها بعنوان رايان إذا كانت تعرفه، ذاكرة أن الاتصال به أمراً مهماً بالنسبة لها. ثم وضعت عنوان غرانت مونتغمري وهي على ثقة من أنه لن يفتح رسائلها.

لم يبق أمامها إلا العودة إلى مكتب التأمين، وكلها أمل أن يكون غرانت منتظراً، لكنها لم تجده ولم تتذكر المكان الذي أوقف فيه سيارته.. فما كان منها إلا أن اتجهت إلى كاليري الفنون حيث زارت قاعاته المختلفة، ثم جلست فيما بعد في مطعم تستمتع بقطعة كايك وفنجان قهوة... كان المكان غير عادي ومؤثر، فقد صمم كما قيل لها ليتسع لعدة مسارح وقاعات عرض ومطاعم ودور

لهو.

حينما خرجت منه راحت تتأمل ما يحيط بها.. ثم جالت في الشوارع فوجدت نفسها مرة أخرى في المركز التجاري. استطاعت من الناحية الأخرى رؤية مباني المكاتب والبنوك، ومبنى شركة التأمين التي خرجت منها هاربة.

كانت تلوح من بعيد تلال تشرف على نهر غزير الماء، تزدان بحدائق ساحرة. أخيراً قررت أنه حان لها أن تعود إلى المزرعة، وفكرت على مضض في أنها ستصرف ما تبقى لديها من مال على أجرة التاكسي من جديد.. وكانت تقف أمام حافة الرصيف، تبحث عن سيارة أجرة فارغة حين علت أصوات إطارات سيارة غرانت الكبيرة وتوقفت أمامها.

صعدت إليها ببساطة تنظر إليه، ولم تدهش من وجهه المتجهم.

- أين ذهبت بالله عليك؟

وانطلق ثانية إلى ازدحام السيارات غير عابىء بأبواق السيارات المحذرة من حوله. فهزت كتفيها مدعية عدم الاكتراث:

- سئمت الانتظار.. فقررت التجول، ذهبت إلى كاليري الفنون ودار الأوبرا التي ستقام فيها حفلة موسيقية الشهر القادم وأود أن أشاهدها.

ظهرت طباعه الشريرة وهو يرد:

- لا ترددي هذه التفاهات أمامي! أعرف أين كنت. إن هذا هو سبب مجيئك إلى هنا. لكنه كان مضيعة للوقت... لن تجديه هنا، فهو خائف.

صاحت به:

- لم أبحث عنه. هذه هي الحقيقة صدقتني أم لم تصدقني.

ورغم تأكيداتها لم يصدقها بل نظر إليها نظرة ملؤها الشك.

- ما من سبب آخر يجعلك تهربين.

- المسألة كل المسألة أنني أحب التجول وحدي، لكنني لا هربت. كنت على وشك استئجار سيارة تحملني لأعود إلى المزرعة لكنك وصلت قبلها.

نظر إليها بريبة:

- اختلقي ما تريدين من ادعاءات، لكن لا تتوقعي مني أن أصدقك. حذار يا ماندي فأنا لن أتركك تغيبين عن ناظري ثانية حتى تسددي دين أخيك.

- وهذا ما لن يحدث أبداً، على ما يبدو. أنا لا أعترض على العمل عندك وأعترف بهذا، لكنني أعترض على حجزي كسجينة. فلا حاجة إلى تدبيرك هذا لأنني لن أهرب.

- إذا سهلت الأمور عليك، فلن يعود هذا عقاباً. أعرف أنك متى اكتشفت مكان أخيك فستذهبين إلى غير رجعة. أنا أفهمك، وأفهم أنك تعتبرين منزلي مأوى جيداً لأنه منزل محترم. لكنني أعلم أنك ستبحثين في الوقت نفسه عن شقيقك. لكن صدقيني لن تصلي إلى نتيجة.. لن أتركك.. ولن أساعد فرداً من أفراد عائلة شيلتون.

تطاير العداء من عينيها:

- لا يمكنك سوقنا جميعاً بعصا واحدة.

- أنا لا أفعل هذا، إنما أحاول أن أعقلك.

- ولن تنجح في هذا.. إنه أخي الذي لم يبق لي سواه من عائلتي. وسأسعى حتى أجده.

رد بقساوة:

- لا تنسي أنني ألقش عنه أيضاً وأنت ببحثك هذا تقودينه إلى

حتفه.

- إن وجدته أحذره منك. فلن أعرّض حياته للخطر. ومن الأفضل لك إذا التقيتما أن تبحثا الأمور بروية. وأنا واثقة بأن المصاعب جميعها ستحل.

- أنت لا تعرفين عما تتكلمين. ألم تعترفي أن أخاك غريب بالنسبة لك؟ فدعيه غريباً لأنني سأعجز عن التحدث بتمدن إلى شخص حاول قتلي.

- لن نصل بهذا النقاش إلى جدوى تذكر، لذا لن أبحث أمره معك بعد الآن.

- حسناً أنا موافق وما ذلك إلا لأن اسمه يبعث طعماً كريهاً في فمي. وكلما قل ذكر اسمه كلما كنت أفضل حالاً.

- في هذه الحالة، ما عليك إلا أن تتجنب رؤيتي، أم أن في عقلك ما يدفعك إلى أن تراني امرأة رخيصة؟

- لا أعتبرك رخيصة ماندي..

ثم تشعر بالارتياح إلا بعد أن خرجا من المدينة وأصبحا في الضواحي. فراحت تركز النظر على المناظر الملتفة حولها... مرا ببلدات عديدة صغيرة، لكل منها شارعها الرئيسي المكتظ بالمحلات. عندما لمحت البحيرات الزرقاء سارعت تقول:

- لم أكن أدرك أننا قريبون من البحيرات. هل لك أن ترافقني إليها؟

- ثمة شاطىء قريب من المزرعة.. سنقصده إذا أحببت.

كان هذا عرضه الأول للصداقة. بدا وكأنه تخطى مزاجه الأسود.. فابتسمت:

- لا أعرف المكان بالطبع.. لكنني أحب أن أراه.

حينما اقتربا من البحيرات راح يشرح لها أن ساحلها الوعر

مكوّن من صخور بركانية، وأن هناك على شاطئها منحدرات بركانية كما قال لها إن هناك غابة كثيفة، تشبه الغابات الاستوائية في وسطها شلالات عظيمة تنحدر من بحيرات تقع في مناطق عالية وتصب في نهر كبير ثم يكمل طريقه إلى البحر. وإن هذه الغابة بدون شك جديرة بالزيارة.

لم تصدق ماندي أنه قد يكون معها اجتماعياً إلى هذا الحد، خاصة بعد الطريقة التي هاجمها فيها لأنها ذهبت وحدها. لكنها من دون شك عقدت العزم على أن تستفيد قدر الإمكان من هذه الفرصة.

أوقف سيارته أمام إحدى البحيرات. وقال لها شارحاً:

- مياه البحيرة تمر بذاك الممر الخفي تحت الأرض.. وهي أثناء مرورها ذاك تصدر صوتاً هائلاً.. فاستعدي.

وكان صادقاً، فسرعان ما اندفع الماء مرسلاً شلالات متدفقة من قنوات واسعة ارتفعت في الهواء ما يقرب من عشرة أمتار مما جعل جميع من يقف هناك يشهق إلا غرانت، الذي شاهد المنظر كثيراً دون شك.

وبينما كانا يتأملان تدفق المياه العنيف تمنت لو كان بيدها كاميرا لتلتقط هذه الظاهرة التي يحدثها تدفق المياه العنيف نحو البحيرة، والتفتت إليه:

- هذا حقاً لأمر مذهل..

هز رأسه:

- اعتقدت أنه سيعجبك. والآن فلنعد إلى البيت. فقد يقلق ماكس ويتساءل عما حدث لنا.. سنؤجل زيارة الشاطىء إلى يوم آخر... فأنا أحس بالجوع فماذا عنك؟

- وأنا كذلك.

وبقي غرانت على مزاجه الطيب هذا حتى وصلا إلى المزرعة، وهناك اقترح عليها أن يسبحا أثناء تحضير ماكس الطعام لهما.. أخفت ماندي دهشتها، ثم قصدت غرفتها لترتدي ذاك البيكيني الذي كانت ترتديه عندما راها للمرة الأولى في البركة.

عندما نزلت وجدت غرانت قد سبقها إلى البركة.

سبحت في الماء بشكل رائع، شاكرة الله لأنها سباحة ماهرة، كانت مسرورة بالمياه الباردة التي بردّت أطرافها الحارة. وكان غرانت ما يزال على مزاجه غير العادي. أمضيا ثلث ساعة يطاردان بعضهما بعضاً، ويلهوان كالأطفال.. ولم تكن قد شاهدته هكذا من قبل... فسرّها أنه بدأ يأنس بوجودها ويستريح لها بحيث لم يعد يأبه بجروحه وهذه بداية جيدة.

حين أعلنت عن رغبتها في الخروج من الماء، أمسك كاحلها ففقدت توازنها ووقعت عليه لأنها لم تكن مستعدة لحركته هذه. التفت ذراعاه حولها كقضيبين فولاذيين، فما هي إلا لحظة حتى وجدت نفسها تستدير لتواجهه، ولم يلبث أن جذبها إلى ذراعيه. ليغوصا إلى عمق البركة وكأنهما حجرين ثقيلين.

لم تكن قد اختبرت من قبل لذة العناق تحت الماء، كانا يطوفان في عمق المياه الزرقاء وأذرعهما وسيقانهما متشابكة. تسللت أصابعه إلى شعرها الأحمر القاتم الذي حررته من عقدته قبل أن تبدأ بالسباحة. وأمسك برأسها، ولم تدرك ماندي أنها تكاد تختنق إلا حين برز رأساهما خارج الماء.

دفعته عنها طلباً لبعض الهواء، فتنشقت رائحة الجو المعطر بالزهور الفواحة.. لكنه لم يسمح لها بأكثر من لحظات، ليعيدها إلى أحضانه.. حملها بين ذراعيه وأخرجها من البركة، فأحست عندها فقط بالذعر وذلك بعد أن أدركت أن الأمور قد تخرج من

يدها إذا لم تضع حداً لما يجري.. فقاومته بعنف حتى أنزلها. وحالما تحررت منه، ركضت هاربة نحو المنزل.

وتبعتها نفخة غضبه، لكنها لم تدرك أنه يلحق بها حتى وضع يده الثقيلة على كتفها، ليديرها نحوه. كانت عيناه تلمعان كعيني مجنون، وسألها بخشونة:

- لماذا تغيرت فجأة؟ أبسبب هذا؟

وفعل ما فعله في اليوم الأول. أدار جرحه نحوها مما اضطرها إلى تركيز نظرها عليه، ودفع بصدره إلى الأمام:

- أم هذه؟ أهذا صحيح ماندي.. صحيح؟ هل نسيت لحظات أنني مشوه؟ يا الله! أنت تعرفين كيف توجهين الضربة إلى رجل من حيث لا يدري!

هزت ماندي رأسها ووجهها يتلوى ألماً وتعاطفاً على هذا الرجل الذي يقاسي كثيراً وكأن جبلاً عظيماً على كاهله. لكن لماذا يفعل بنفسه هذا كله؟ إن جرحه لا يقلل أبداً من جاذبيته كرجل!

أجابته بهدوء:

- لا يا غرانت.. أنا لا أكاد ألاحظها حتى، وهي لا تزعجني أبداً أبداً.

- لماذا إذن؟ إذا كنت تتوقعين مني أن أصدق، فقولي لي لماذا عاملتني فجأة ببرود؟

- لأنك تخيفني. لقد كنت متوتراً جداً. وأنا خرجت عن طوري.. أريد أن أساعدك في التغلب على مخاوفك، لكن دون أن أتورط.

- لا أصدقك. كلامك يبدو مقنعاً، لكنني لست غبياً.

لاحظت العذاب في عينيه فحاولت إقناعه:

- أرجوك غرانت.. ليس الأمر كما تصوره أبداً.

- لا تلمسيني.. وابتعدي عني بالله عليك!

- أنت مخطىء، وقاس على نفسك، أنت ترى جروحك حاجزاً بينك وبين العالم.. لكنها ليست حاجزاً.. إنها.. لا شيء.

لمعت عيناه بشراسة:

- لا شيء؟ ما كنت لتقولي ذلك لو كنت أنت المصابة بها. ابتعدي عني حالاً.. ماندي!

وقفت مصممة أمامه:

- لا أستطيع تركك والأسى يجتاح نفسك. أنت لا تعطي نفسك فرصة يا غرانت، لا أجدك منفراً... لا شيء فيك يجعلني أشمئز، لكنك كنت تؤلمني بقوة.. هذا كل شيء، أضف إلى ذلك أنني لا أسعى إلى علاقة عابرة.

- ومن يعرضها عليك؟ أنا لن أطلب من امرأة أبداً مشاركتي حياتي، ولو لفترة قصيرة. فهذا ليس عدلاً.

صاحت به تطالبه برد ونبضاتها تتسابق مع بعضها:

- إذن ماذا كنت تريد؟

- كان ما قمت به جنوناً. أنت تعرفين كم تبدين مرغوبة خاصة في هذا البيكيني السخيف. لم أستطع إبعاد يدي عنك. وما زلت أريدك. فابتعدي عني، قبل أن أجعل من نفسي مغفلاً بكل ما للكلمة من معنى.

أحست ماندي بالعذاب لأنها تراه على هذه الحال وتمنت لو أن بيدها حيلة.

- أنا حقاً أقول. فلا أكاد أرى جروحك. صدقني إنها الحقيقة غرانت. يجب أن تصدقني. أنت...

وانخفض صوتها حتى بات همساً:

- لم يؤثر فيّ رجل كما تؤثر أنت فيّ.

كان اعترافها صعباً، لكن إذا كان سيساعد، فهو يستحق الإحراج. لكنه قال ساخراً:

- الكلام سهل. لكن عندما يحق الحق تبدو الحقيقة. لا تنكري أن بشرتك تتقلص حين ألمسك، رفضتني مرتين.. فإذا لم تخبريني ردة فعلك هذه عن مشاعرك فلن يخبرني شيء آخر.

هزت رأسها يائسة:

- لقد فهمت كل شيء خطأ غرانت، إن عقدة النقص هي التي تفعل بك هذا... عانقني الآن لأثبت لك كلامي.

نظر إليها من عينيه السوداوين القاسيتين نظرة إدانة:

- لن تثبتي شيئاً... لقد أخطأت وأنا نادم، فلنترك الأمر هكذا.

أحست ماندي أنها تلقت ضربة على معدتها.. فنظرت إليه مؤنبة:

- إذا كان هذا فعلاً ما تريد.

وارتدت على عقبيها متجهة إلى الداخل.

لم تكن وجبة العشاء سهلة، واغتيظت ماندي عندما انتهت منها، نظر ماكس إليهما بفضول دون أن يسأل شيئاً. لم تكن قد قابلت رجلاً من قبل بهذا المراس الصعب... وتساءلت عما إذا كان سيتجاوز يوماً ألم جرحه.. نعم هي تعلم أن أخاها الفاعل. لكن اللوم لا يقع على عاتقها هي.

لم تشاهده خلال الأيام التالية كثيراً، وكان يبقيها مشغولة دائماً إذ كان يوكل إليها أعمالاً غير ضرورية ومع ذلك لم تتذمر. فقد كانت بحاجة إلى أي شيء تشغل به وقتها.. لكنها شعرت بعد أن راح الوقت يمضي باليأس من استلام أية رسالة من ڤاليري تشاتوم إلا إذا كان غرانت قد استلمها ومنعها عنها.

أخبرت ماكس عما جرى في المركز التجاري وضحك كثيراً.

- هذا عظيم ماندي! لكنك بذلك دفعته إلى أن يزيد الرقابة عليك. لا أدري ماذا دهاه.. لم أعرفه متعصباً ضد أي شيء هكذا من قبل.

- إنه يريد أن يحقق مبتغاه. لكنني ناجحة بما أقوم من أعمال مكتبية.

- أو ليست السكرتاريا عملك؟

- ألم يخبرك أنني مهندسة؟

ارتفعت عيناه دهشاً:

- أتصلحين الماكينات، وأشياء كهذه؟

- ليس تماماً، بل أعمل في الحقل الالكتروني.. في حقل المبيعات في الواقع.. لكنني تدربت كأي مهندس آخر.

- أليس اختصاصك خاص بالرجال وغير جدير بالنساء.

- هذا ما يقوله الجميع.. لكن لماذا لا تقوم به المرأة؟ فأنا بارعة في عملي أكثر من بعض الرجال.

- أنت إحدى النساء المتحررات إذن؟ ولا أستطيع القول إنني أوافقك الرأي.

ضحكت ماندي:

- أعتقد أن زوجتك لم تقم بشيء آخر غير رعايتك ورعاية أولادك.

- هذا صحيح. ليس على النساء القيام بعمل آخر.

- قل لي.. أكان غرانت مختلفاً.. قبل الحادثة؟

تغضن وجهه من جديد وأصبح فيه آلاف الخطوط:

- لا أعتقده يختلف كثيراً. في بعض المناسبات حين يذكر له أحدهم اسم رايان يصبح رجلاً صعباً. وعندها فقط أبتعد عنه. لم

يكن له قط هذا المزاج الأسود.

لم يظهر غرانت في الصباح التالي على مائدة الفطور، بل كان في مكتبه ينتظرها ومزاجه شرير. وما إن وصلت إلى الطاولة حتى مد يده إلى مغلف وهزه بعنف أمامها:

- لماذا تراسلك ڤاليري تشاتوم؟

- كيف تجرؤ على فض رسالتي؟ أعطني الرسالة!

لكنه أبعد الرسالة عنها عنوة:

- لم أفضها ماندي، لكنني أعرف خط ڤاليري.

ضاقت عيناها:

- أنت؟ ظننتها صديقة أخي!

رد بخشونة:

- لقد نقلت عاطفتها إليه. كنا قبل الحادثة على وشك إعلان الخطوبة. أتصدقين هذا؟ لكن عندما كنت في المستشفى ووجهي وجسدي مضمدان بالأربطة، أطلقت ضربتها قائلة: «إنها لن تتحمل الزواج من رجل مشوّه... وداعاً غرانت.. وآسفة لك... لكن...».

والتوت شفتاه بازدراء.

* * *

٤ ـ جراح لا تندمل

انكمشت ماندي من نظرة الكراهية التي علت وجه غرانت، وأحست بأن قلبها يكاد يتوقف، ثم راحت نبضاته تتضاعف وتتضاعف:

- ما كنت أعلم... لم يقل لي ماكس إن...

- ماكس؟ ما شأنه بهذا؟ أهو من كتب لك عنوان ڤاليري؟

أطرقت ماندي برأسها وقد أدركت أنها تكلمت أكثر مما يجب. ولينها لم تذكر العجوز لئلا تورطه في متاعب هو بغنى عنها. ترى أهذا ما عناه ماكس حين قال إن غرانت سيسلخه حياً؟

- سألته أن يساعدني على إيجاد رايان.. ولقد تفهم الوضع الذي لم تتفهمه أنت. لذلك قال لي بأن ڤاليري تشاتوم قد تفيدني.

- هكذا إذن؟ يبدو أن ماكس كان يعرف أنها كانت تعبث مع رايان في الوقت الذي تلاعبت فيه على مشاعري، لكنه خاف أن يخبرني ما هو واضح للعيان. لكن كيف يسمح لنفسه أن يعطيك العنوان؟

- ما اعتقدك ستعرف. ولو عرفت أنك ستغضب لما...

- لست غاضباً.. لأنني لا أكنّ لتلك المرأة إلا الكراهية. فهنيئاً لرايان تلك المرأة التي لا أعتقدها باقية عليه ولا أعتقده باقياً عليها أيضاً لأنه يخشى أن أتصل بها فأعرف مكان اختبائه. ربما

وجدت كبش الفداء حين اكتشفت أنها لن تستطيع الزواج مني. لكنني أشك في أن يكون ذلك قد دام... أقصدت منزلها عندما فررت ذاك النهار؟

- اجل.. لكنني لم أكذب حين قلت إنني لم أكن أحاول التفتيش عن رايان.

- لكنك بطريقة غير مباشرة كنت تسعين إليه... لماذا لا تفضين رسالتها وتنهين عذابنا؟

تناولت المغلف منه وقلبته بين يديها:

- إذا كنت لا تمانع. أود قراءتها وحدي.

اشتعلت عيناه كجمرتين وهاجتين وقال حانقاً:

- بل أمانع... فمن حقي أن أعرف مكانه كما ستعرفين أنت.

- لماذا؟ حتى تصل إليه أولاً؟.. لا.. إنه أخي، وأنا أريد قضاء بعض الوقت معه، لا أن أزوره في السجن... سأقرأ الرسالة فيما بعد.

دست الرسالة في جيب سروالها، فقفز من مكانه واندفع عاصفاً نحوها.

- أحترم إرادتك.. لكن صدقيني سأعرف ما فيها بطريقة أو بأخرى. حتى ولو كان هذا يعني الاتصال بڤاليري وهذا ما يخشاه أخوك على ما أعتقد.

إنها إذن، المرأة التي طعنت قلبه.. فماذا حدث يا ترى؟

قالت بقوة:

- لا أهتم بما تفعل. دعني فقط أقرأ الرسالة وحدي.. إن كانت تجهل مكانه أخبرك. وإن كانت تعرفه فما من قوة على وجه البسيطة قد تنتزع هذا مني.

ارتد عنها بصمت عدائي، وخرج من الغرفة.. فجلست ماندي

إلى الطاولة وفضت الرسالة التي راحت تقرأها.

«عزيزتي الآنسة شيلتون:

«لقد دهشت حين تلقيت رسالتك لأنني لم أكن أعرف أن لرايان شقيقة، إذ لم يبحث معي يوماً حياته في انكلترا. وما زادني دهشة معرفتي بأنك تعيشين في منزل غرانت مونتغمري الذي اعتقدته قد يستقبل أي إنسان في هذا العالم إلا أنت. فكيف تتحملين النظر إليه؟

راسلت رايان وأخبرته عن وجودك هنا، لكنه رد علي قائلاً إنه لا يريد أن يراك فهو يخشى أن تقودي غرانت إليه، فالرجلان غير متحابين، كما تعلمين. وهو يقترح عليك العودة إلى انكلترا ويطلب منك أن تنسي أن لك أخاً.

المخلصة.. ڤاليري تشاتوم»

قرأت ماندي الرسالة عدة مرات، إنها مخيبة للأمل.. لكنها رفضت أن تصدق أن رايان لم يرغب في رؤيتها.. كان يجب أن تؤكد له أن مكان وجوده سيبقى في الكتمان معها كما كان عليها أن تؤكد له أنها لن تعود إلى موطنها قبل أن تراه! فهي تريد أن تقول له إن والديهما ماتا... في حادث مريع.. الأمر خاص وسرّي يصعب عليها ويؤلمها كتابته في رسالة.

فكرت في الاتصال بڤاليري، لكنها لم تجد اسمها في دليل الهاتف، وما عاد أمامها إلا زيارتها ثانية.. لكن هذا أمر صعب. لذا ليس عليها إلا أن تكتب رسالة وتطلب من ماكس أو من أحد العمال وضعها في البريد.

لكن قبل أن تتحرك من مكانها عاد غرانت يقتحم عليها الغرفة:

- ماذا تقول في رسالتها ماندي؟

وانتزع منها الرسالة وقرأها بسرعة ثم رماها إليها:

- أصبح لدي على الأقل دليل الآن، أشكر لك عونك ماندي.

فسعت إليه تتبعه إلى فناء المنزل الخارجي:

- غرانت ماذا ستفعل؟ لن تذهب إلى فاليري.. لن تجبرها على أن تبوح لك بمكان رايان، دعني أراه أولاً. أريد أن أخبره عن موت أبوينا. أعلم أنك إذا وصلت إليه قبلي ستقتله وعندها لن أسامحك أبداً.. وسأدعو الله أن أراك في الجحيم!

- أوَلم يضعني أخوك في الجحيم بعد؟ إنه يستحق كل عقوبة.

أخذت تضرب صدره بقبضتيها:

- يا الله كم أكرهك! لم ألتق قط برجل له قساوتك هذه... كيف تفعل بي هذا! أنت غير إنساني؟

- لم يجعلني رجلاً شريراً إلا أخوك. لقد انتظرت طويلاً حتى أضع يدي عليه، ولن أتركه يهرب ثانية.. لكن..

نظر إليها بريبة:

- أظنني سأتركك تقومين بهذا العمل القذر عني.. فليس لدي ميل لرؤية فاليري، لأنني قد أقتلها كذلك... اذهبي لرؤيتها وخذي منها عنوان رايان، وتحدثي إليه وبعد ذلك...

- تقتحم علينا المكان لتقتله؟ أتظنني أقودك إليه؟

- إذا كنت تريدين رؤيته فما من طريقة أخرى. واعلمي أنك لن تستطيعي الخروج من منزلي إلا بإذني.

التمع الغضب في عينيها الخضراوين:

- أنت كريه لا تطاق!

ابتسم:

- إنه ليس الاسم الوحيد الذي دعيت به.. فما هو ردك

ماندي؟

- أنت تعلم أن ردي واحد، لأنني أريد رؤية رايان.

قال بصوت لا يترك مجالاً للرفض:

- إذن سنذهب لرؤية فاليري الآن.

- قد لا نجدها في منزلها كما حدث عندما زرتها في بيتها.. أتعمل؟

- فاليري تعمل؟ إنها سيدة كسول، هيّا بنا إن لم تكن في المنزل ننتظرها.

لكن فاليري كانت في المنزل. صعدت ماندي إلى منزلها وبقي غرانت في السيارة منتظراً.

كانت الفتاة التي فتحت الباب كما تصورتها ماندي تماماً، وقد نجا غرانت من براثنها بأعجوبة. فهي لن تكون يوماً زوجة صالحة لمزارع.

- أنا ماندي شيلتون.

بدت الدهشة على المرأة:

- لم تضيعي أي وقت على ما أرى، تفضلي هل غرانت مونتغمري معك.

- إنه ينتظر في السيارة.. أظنك تعرفين سبب مجيئي إلى هنا؟

تصلبت عينا المرأة وقست تعابير وجهها ثم تكلمت بصوت متوتر:

- كيف حاله؟ لقد مضى على رؤيتي له سنتان كاملتان.

ردت ماندي بمرارة واتهام:

- منذ الحادثة..

- أرى أنه وجد لنفسه نصيراً... إن هذا لمؤثر! يبدو أنه أخبرك قصتي.

ردت عليها بغضب:

- إن ما فعلته به أمر ظالم.

- إنه كبير وقوي قادر على الاعتناء بنفسه. ولا أعتقد أن مع النساء كانت تنقصه. ولا أظنه تغير... أظنك وقعت في حبه؟ ليس هناك مقياس للذوق. أنت تحبين الرجال القساة، أليس كذلك؟ أما أنا فلن أستطيع الارتباط برجل مشوه.

- جرحه ليس ميتاً إلى هذا الحد. وهذا ما كنت ستكتشفينه لو تريثت قليلاً.

- لا أحتمل الأمراض، حسناً كفانا كلاماً عن غرانت.. أظنك تريدين رؤية رايان؟ أنت تضيعين وقتك سدى. يقول إنه لا يعرف سبب مجيئك إلى أوكلاند. ومع ذلك لا يريد رؤيتك.

- ثمة ما أريد أن أطلعه عليه.. أرجوك.. الأمر مهم.

ردت الفتاة بمرارة:

- أنت لن تخدعيني، أعرف لماذا تريدين رؤيته.. أنت تفعلين هذا من أجل غرانت الذي دفعك إلى هذا.. أليس كذلك؟

- هذا غير صحيح، أعرف مشاعر مونتغمري، لكنني لن أكشف له عن مكان أخي. أحب رايان، ولأنني أحبه تريثني هنا الآن.. ويجب أن أراه.

سألت الشقراء بسخرية:

- ولماذا؟ لماذا يصبح الأمر مهماً فجأة؟

- هذا شأني... الأمر خاص. لماذا لا ترشديني إلى مكانه؟

- أتظنينه غبياً للبقاء هنا؟ أنا لم أشاهده شخصياً منذ سنة.

- ألم تنجح الأمور بينكما؟

- ما كنت أريد أن تدوم علاقتي به. لقد ساعدته حين هرب، لكنني أهوى الرجال الأثرياء. ورايان لن يتمكن من الحفاظ على

المستوى الذي أريد.

- ومع ذلك تخليت عن غرانت؟

ردت بلهجة شريرة كريهة:

- أحبهم أغنياء وسيمين. أريد حين أكون مع رجل أن تنظر إلي النساء بحسد، لا بشفقة.

أشفقت ماندي على غرانت في هذه اللحظات، فلا عجب أن تعتمل قلبه المرارة. ولا عجب أن يرفض النساء وينحيهن عن حياته!

- ما جئت لأبحث أمر غرانت معك.. أريد معرفة عنوان أخي.

- سأراسله وأعلمه بأن لديك أمراً مهماً تريدين إطلاعه عليه.

- أعطني العنوان لأراسله أنا.

- اوه.. لا! أنا لا أثق بك. فإن عرف غرانت ولحق برايان يلق علي اللوم، وقد يصبح شريراً.

- إذن لست مستعدة للمساعدة؟

- قلت إنني سأراسله. وهذا كل ما أنا مستعدة للقيام به.

وفتحت الباب:

- أرجوك اذهبي الآن، سيصلك الرد حالما يأذن لي رايان، لكن حذار أن يقرأ غرانت الرسالة.

ما عاد في وسع ماندي القيام بأي شيء، فابتلعت خيبتها وخرجت من الشقة.. وما إن دخلت إلى السيارة حتى سارع غرانت يسأل:

- حسناً؟

- لا حظ. تخشى ڤاليري أن أعطيك العنوان.. لكنها ستراسله لترى ما يقول.

صاح بوحشية:

- يا الهي.. لقد فشلت في التعاطي مع الأمر كله.. كان يجب أن أقابل ڤاليري بنفسي.

- ما كان هذا سيساعدك، فمشاعرها نحوك لم تتغير. آسفة.. لكن إذا كان هذا يعزّيك، فهي لا تقابل رايان كذلك. ولا أظن علاقتهما دامت طويلاً.

- أتخالينني أهتم؟ لقد قدّم لي رايان عظيم الفائدة، فقد كنت أعمى البصر عن حقيقة ڤاليري. لقد خدعتني فعلاً وأنا الذي ظننتها أحبتني.. لكن ثروتي لم تعن لها شيئاً أمام رعبها من الارتباط برجل غير كامل.

ردت بقوة:

- لأنها غبية.. فلو تريثت قليلاً لرأت بنفسها أن الجرح ليس شيئاً أبداً، ولاعتادت مع الوقت عليه!

- لا تبدئي من جديد بالله عليك، أنت مثلها سيئة. لكنها كانت على الأقل شجاعة فواجهتني وقالت ما تفكر فيه عوضاً عن إبداء الشفقة.

اتسعت عينا ماندي:

- الشفقة؟ أنا لا أشفق عليك غرانت مونتغمري! أنت من تشفق على نفسك. وهذه هي مشكلتك.

رفض أن يردّ، بل حرك السيارة وانطلق بسرعة خطرة منعت عنهما أي كلام.. وكانت الرحلة طويلة غير مريحة، لذا أحست ماندي بالسرور لانتهائها. كان قبل الظهر كله مضيعة للوقت، إذ لم تحقق فيه شيئاً. ربما كان من الأجدى لو راسلت ڤاليري وتلقت النتيجة نفسها.

كان الرجال قد تناولوا غداءهم إلا ماكس الذي تذمر ساخطاً:

- ما عاد طبخي يعجبهم. لقد أفسدتهم. لم أتلق منهم إلا الإهانات.

ابتسمت له:

- أنا آسفة، تلقيت رسالة من ڤاليري هذا الصباح وذهبت لرؤيتها.

- مع غرانت؟ لماذا أخبرته؟

- لم يكن أمامي خيار آخر، فقد شاهد الرسالة وعرف خطها. لكنني ما كنت أعرف شيئاً عن زواجهما الذي كان وشيكاً بل ما كنت أعلم أنهما متعارفان وأنت لم تخبرني.

- ما ظننت ذلك ضرورياً لأنني لم أعتقد سيعرف بأنك ستقابلينها. لقد ورطت نفسي، هل عرف من أعطاك العنوان؟

- أجل.. لكن إذا كان هذا يعني أن أجد رايان، فالشكر سيكون لك.

- هذا إذا لم يصل غرانت إليه أولاً.

- لا تنس أنه أخي... لذا سأبذل جهدي حتى لا يعرف مكانه.

هز رأسه بحزن:

- حذار يا فتاتي. أعرف غرانت منذ أمد بعيد.. ففي نفسه كراهية مبررة تجاه أخيك. فما من رجل يسامح رايان على ما فعله به. ولا أعتقد أن هناك ما قد يحول بينه وبين الانتقام.

- أعرف هذا تماماً. لكنني سأنجح في إبعاده عنه.

لم ترغب ماندي في أن تقوم بالعمل المكتبي ظهر ذاك اليوم. لذا نزلت إلى البركة لتسبح، علها تجد الراحة بين أحضان المياه الصافية. بعد أن سبحت استلقت تحت أشعة الشمس، رافضة الغوص في مشاكلها، إنها تقوم بما يجب أن تقوم به أية فتاة تحترم

نفسها.

حين وقع ظل عليها عرفت من صاحبه فوراً، فسألت دون أن تفتح عينيها:

- ماذا تريد؟

- أريد أن أعرف ماذا تفعلين هنا؟

- أليس الأمر واضحاً؟

وفتحت عينيها قليلاً فدهشت لأنها رأته في ثياب سباحة أيضاً، تشع أشعة الشمس على صدره البرونزي مظهرة بياض الجرح.. كيف فعل به رايان هذا؟ لقد بدأت تفهم سبب كرهه له وتفهم لماذا يقسم أن يقتله... إنها لا ترى صدره دائماً، لكن حين تراه يذكرها بوضوح بما فعله أخوها.

لكن غرانت يرى جروحه كل يوم! وهي تذكره دائماً بهجوم رايان المميت عليه.. وما من فرصة من النسيان وستبقى الذكرى معه طوال حياته.

- كان يجب أن تعملي!

جعلتها برودة صوته ترتجف:

- الطقس حار جداً.. وسأنهي الطباعة في المساء.

- بل أنت كسولة عديمة الجدوى... هل بدأ العمل يرهقك؟ هل أدركت أخيراً أن العمل عندي ليس مفروشاً بالورود؟

نظرت إليه بحدة تلمع عيناها الخضراوان غضباً:

- ما اعتقدت أن دربك مفروش ورداً. لكنني لا أرى سبباً يمنعني من التمتع بالشمس أحياناً.

- ليس حين يكون لديك عمل.

- أنت تريدني أن أعمل أربعاً وعشرين ساعة.

كانت عيناه السوداوان عميقتين لا يمكن سبر أغوارهما، قالت

له:

- لقد بدأت تعرف مدى قدرتي، حسناً لقد أنهيت السباحة، وها أنا على وشك العودة إلى منزلك.

دفع غرانت ماندي في الأيام التالية إلى العمل الشاق، لم تكن تتوقف عن العمل لحظة منذ الصباح حتى أوان النوم، حيث تكون مرهقة إرهاقاً يجعلها ما إن تلمس الوسادة حتى تغيب في نوم عميق. كانت تقوم بكل شيء: الطبخ وتنظيف المنزل، الغسيل والكوي، إضافة إلى الأعمال المكتبية التي لم يكن هناك حاجة إلى إنهائها.

وحدث أن علق ماكس قائلاً إنها أصبحت هزيلة.

- أنت تجهدين نفسك. يجب ألا تتركيه يحركك كما يريد.. تدهشينني، فأنت لم تحصلي على ساعة فراغ منذ أسبوع.

- لن أجعله يستمتع ويتلذذ بسماع تذمري. سأعمل إن اضطررت حتى أقع.

- أنت غبية دون شك، أتريدين أن أحدثه؟

ردت بسرعة وقوة:

- لا! سيظنني أشكو..

أخيراً وصلت الرسالة المنتظرة من ڤاليري وقد دعاها كما فعل في المرة الأولى إلى المكتبة وأعطاها الرسالة.. ومع أنها كانت تفضل أن تقرأها وحدها إلا أنها فضت المغلف ووجدت رسالة قصيرة:

«رايان يرفض رؤيتك.. ويصر على أن تعودي إلى الوطن.. فلا تحاولي رؤيته ثانية... ڤاليري تشاتوم».

أحست بأنها ستجهش بالبكاء.. لكنها ارتدت بغضب ورمت الرسالة إليه، تراقبه يقرأها... لم يظهر أي نوع من المشاعر على

وجهه..

- هذه هي النتيجة إذن. ليس أمامي بصيص نور. كنت سأستأجر تحرياً خاصاً لكنني لا أستطيع تحمل هذه النفقات. سأراسله وأعلمه بموت أهلنا، وأطلب من ڤاليري إيصال الرسالة إليه.

وقف غرانت، ثم دار حول طاولته ووقف إلى جانبها:

- هل ستستسلمين؟ أين تلك الروح المقاتلة التي أعجبت بها؟

هزت كتفيها، متجاهلة خفقان قلبها. وهذا ما لم يحدث من قبل أمام رجل.

- لا أملك مالاً كما تملك أنت. وأنا دهشة فلماذا لم تستأجر تحرياً خاصاً.

رد بوحشية:

- لماذا؟ أليتهي بي الأمر في السجن بتهمة القتل؟ لا.. شكراً ماندي. سأختار الوقت المناسب بنفسي... ولا بد أن تلتقي دروبنا مرة أخرى في يوم ما. أما الآن فدعيه يعاني.. فهو يعلم أنني لن أنسى، ولا بد أنه عاش في جحيم خلال السنتين الأخيرتين، متسائلاً متى سأظهر أمامه. إنه يعاني، صدقيني.. وسيستمر في المعاناة حتى آخر عمره. هذا إذا لم يفعل شيئاً غبياً آخر. وهو في جميع الحالات سينال جزاءه.

لن تجعل عذابه يزعجها، لأنه يستحق العذاب. فقد عملت منذ ثلاثة أسابيع بجهد منقطع النظير، تمسح وتكنس وتلمّع وتطبخ.. وتطبع.. وهذا كله دون أن يدفع لها قرشاً واحداً، وما ذلك إلا لأنه قرر أن تسدّد هي دين أخيها...

قالت له بجفاء:

- أنت تتكلم عن أخي.

رد متجهماً:

- إن هذا ما يستحيل علي نسيانه.

- ما دمت لن أجد أخي، أفضل العودة إلى بلادي لأنني أرفض البقاء في منزلك أستمع إلى إهاناتك التي تهين بها أخي.

- قلت إنك جئت إلى أوكلاند بتذكرة ذهاب دون إياب؟

- وماذا في هذا؟

- كيف ستعودين إذن؟

- سأجد عملاً مناسباً. أدّخر منه بعض المال، فأنا أرفض أن أقضي حياتي في عمل من غير مقابل. ولا يمكنك إجباري!

- ظننتك أحببت حياتك هنا؟ لقد قلت لي مرة إن العمل ليس صعباً.

- وأنت قلت إنك ستضاعف عملي حتى يصبح لا يطاق. وقد نجحت لأنني في الأيام الأخيرة ما عدت أجد وقتاً للاعتناء بنفسي.

- أتعترفين أن هذا كثير عليك؟

أحست ماندي فجأة بالتعب. إذ كانت رسالة ڤاليري القشة التي تصمت ظهر البعير، لذا لا فائدة من تركه يتقدم منها بعد الآن. فقالت بمرارة:

- هذا صحيح.

بدا السرور عليه:

- لم أفكر يوماً في أنني سأسمع هذا منك.

ودت لو تضربه:

- لو كان لدي أمل في أن أرى رايان، لما قلت هذا. كنت سأستمر على حالي حتى أجده.. كنت أستغلك كما تستغلني.. أنا لست خائفة منك.. وقد قررت الذهاب حالاً، فلا تحاول ردعي.

ابتسم:

- تسرني عودة روحك المقاتلة فلا يبدو أن رفض رابلا حطمها، وإلا لكان هذا أمراً مؤسفاً. أنت امرأة رائعة مانندي. أتعرفين هذا؟

مد يديه وأمسك يكتفيها برقة هذه المرة خالية من العنف. يد قويتان لكن لطيفتان:

- لدي عرض أعرضه عليك.

ارتفعت عيناها نحوه:

- إنه عرض مراوغ.. على ما أعتقد لذا لن أستمع إليه.

هز رأسه وكأنه غير قادر على فهم ردة فعلها الرافضة:

- إنه عرض صريح.. أؤكد لك. أنت على حق مانندي.. يحق لي حجزك. وأنت حرة في الذهاب متى شئت. لكنك تقومين بعمل عظيم، وأكره أن أدعك ترحلين.

- إذا حسبت أنك قد تستعبدني بسبب طيبة قلبي فقد أخطأت.

- سأعرض عليك الوظيفة بصورة دائمة.. على أن أدفع بنا أتعابك بسخاء وما شرطي الوحيد إلا أن تبقي معنا مدة سنة. لا أريدك أن تهربي عائدة إلى بلادك حالما تدخرين المال اللازم.. رأيك مانندي..؟ اتفقنا؟

حارت مانندي في أمرها بسبب هذا التبدل المفاجيء:

- لا أدري.. أريد بعض الوقت حتى أفكر.

سألها بسرعة:

- كم من الوقت تحتاجين؟ بضع ساعات؟ أيكفيك هذا؟

- سأبلغك قراري غداً صباحاً.

- حتى الصباح إذن. وأعدك ألا تندمي في ما إذا وافقت.

لكنها لن تثق بكلامه قبل أن يتغير تصرفه تجاهها وتجا النساء، فلن تطيق صبراً إذا ما اتهمها في كل مرة ترتد عنه بانه

تشمئز منه. فهو على ما يبدو غير قادر على القبول برفضها غزله.

هي لا ترفضه إلا لأنها تخاف من مشاعرها الخاصة! ومع ذلك كانت متأكدة من أن ردها سيكون إيجاباً.

دهشت حين سمعته يقول:

- ما رأيك القيام بتلك الرحلة التي وعدتك بها؟ الرحلة إلى البحيرة.

نظرت إليه مذهولة. إن هذا لابتزاز، فكل لحظة تقضيها معه وهو في هذا المزاج الودي، ستكون صعبة عليها.

- لا أدري.. لا أظنها فكرة صائبة.

رد بلطف:

- ستساعدك على التخلص من كآبتك. أعلم أنك حزينة بسبب امتناع أخيك عن الالتقاء بك. لكنني على عكس ما تظنين، أفهم مشاعرك خير فهم فلست بارد القلب. لذلك أعتقد أن الرحلة ستفيدنا... حضري بعض الطعام وسنقوم بشواء اللحم هناك، أعدك بأن تتمتعي بالرحلة.

ابتسمت بضعف:

- كسبت! فلن أقوى على التركيز على الآلة الكاتبة.

- تعالي إذن. لمَ الانتظار؟

بدا لها فجأة طفلاً يضحك بارقة عينيه..

حضّر في المطبخ براداً صغيراً ملأه بالثلج المكسّر، ثم وضع فيه زجاجات المرطبات واللحم والسلطة. وحمل معه طعاماً كثيراً ثم أضاف فطيرتين من التفاح كانت حضرتهما لغداء العمال.

- اذهبي الآن وارتدي البيكيني، ثم ضعي ما يغطي جسدك. فأنت لم تسمري بعد سمرة تقيك حر الشمس.

كان هناك نوع من البهجة في اجتياز الريف مع غرانت في

سيارته الأميركية... فراحت تضحك متمتعة.

نظر إليها جانبياً:

- ما أروع أن أراك سعيدة. لقد كنت متجهمة مؤخراً.

- وغلطة مَن هي؟

أخفض رأسه:

- نعم مذنب.. لكن الأمور ستتغير حين تعملين لدي رسمياً.

- لم أوافق بعد.

- اوه.. لقد نسيت. ظننت موافقتك أمراً مسلماً به. لكنك ستوافقين، أنا واثق من هذا.

انعطف عن الطريق الرئيسية واتخذ طريقاً ملتوية. نسيت مانلي كل حديث وهي تتأمل ما حولها باهتمام. كان الدغل الكثيف الذي دخلاه يمتد في كل الاتجاهات. أشار غرانت إلى جذوع أشجار محروقة من جرّاء الصواعق. أحزنها منظر هذا الخراب.. فقد كانت ترى مثل هذه الأحداث في الأخبار المصورة.. وتعرف أن الأمر قد يسوء إذ قد تحترق مساحات شاسعة من الغابات مجتاحة المنازل في طريقها... لكن الغابات تعود دائماً إلى الحياة، والنبات الجديد يشق طريقه في الأرض السوداء المحروقة.

اشتدت تدريجياً كثافة الغابة، فأوقف غرانت السيارة وخرجا منها ليصغيا إلى نداء الطيور والحيوانات المختبئة بين الأعشاب. بدا وكأن غرانت يبحث عن شيء فلقد وقف صامتاً عدة دقائق، وأخيراً وضع يده على ذراعها رافعاً اصبعاً إلى شفتيه، مشيراً إلى فسحة بين الشجر ليست بعيدة.

شاهدت أمامها أربعة غزلان تبدو وكأنها عائلة، فهناك غزالان كبيران وآخران صغيران، وهي جميعها تشنف آذانها متطلعة إلى ما حولها وأذيالها القصيرة تهتز.

- تقف عادة هذه الوقفة حين تحس بالخطر. إن أصغر حركة قد تجعلها تختفي عن النظر. إن هذا يوم حظنا دون شك.

قالت بصوت أجش خفيض:

- ما أجملها. ما عرفت أن حجمها كبير إلى هذا الحد.

- قد تبلغ طولاً متراً وربعاً. إن قدرتها على الجري فائقة بحيث لا تصدق. حين كنت صغيراً خرجت للصيد مع جارنا المزارع، أذكر أنني راقبتها تركض، فقدرنا سرعتها بخمسة وثلاثين ميلاً في الساعة، وكانت كل قفزة تبعد عن الأخرى ما لا يقل عن سبعة أمتار.. أما صغارها فأسرع جرياً لأنها أخف وزناً. وقد تصل سرعتها إلى أربعين ميلاً في الساعة وقد تركض خمسة أميال متواصلة بالسرعة ذاتها دون توقف. وقد تصل قفزاتها إلى عشرة أمتار.

صاحت:

- لا يصدق.

وكان صوتها أعلى من المطلوب، فتناهى إلى الحيوانات المترقبة التي سرعان ما ابتلعتها الغابة.

- اوه.. أنا آسفة.

ضحك غرانت:

- توقعت هذا.. فلا تلومي نفسك.

- لكنها كانت طريفة.. هل ستعود؟

- لا أظن.. لقد ابتعدت كثيراً الآن.

- شاهدت برنامجاً وثائقياً على التلفزيون يظهر طريقة عيشها وتربيتها، إن الأمر لمذهل.. لقد بدأت أحب الحياة البرية.

صاحت فوقهم قبّرة، صوتها صدّاح كالموسيقى. كانت تلمح أحياناً الألوان تمر بها وذلك حين تنتقل الببغاوات والطيور الملونة

من أمامها.

وجدت أمامها زهور برية لم ترَ مثلها من قبل، بعضها كالفراشات الملونة، تقصدها دائماً طيور العسل ذات المنقار الطويل. وهناك زهور تشبه النجوم زهرية اللون وكأنها مصنوعة من الشمع.

كان ما حولها من ألوان برّاقة ورائحة فوّاحة جنة للنظر، لذلك حين اقترح غرانت عليها أن يتابعا طريقهما شعرت بالأسف.

طفق الطريق بعد دقائق يهبط نزولاً فجأة، هبطا تلة حتى انتهى بهما الطريق إلى شاطىء البحيرة الذي يقع في مكان مهجور.

قال لها غرانت:

- سنسترخي الآن لنتمتع بما حولنا.

وما هي إلا لحظات حتى أخرج كل شيء من السيارة ووضعه على الشاطىء ثم قال:

- ما زال الوقت باكراً على الطعام.

فصاحت بإثارة:

- يجب أن نسبح أولاً. المياه مغرية.

خلعت فستانها وخفيها ثم ركضت إلى المياه، التي أحست بها كالحرير على جسدها، باردة منعشة. سبحت عدة دقائق قبل أن تنتبه إلى أن غرانت لم يتبعها بل وقف يراقبها، منفرج الساقين، عاقد الذراعين حتى بدا بوقفته تلك مثالاً رائعاً للرجولة والجاذبية.

فصاحت به:

- ألن تأتي؟ هل ستبقى واقفاً طوال النهار؟

- أنا أتأمل حركاتك معجباً.

أحست بسرور لا يوصف فغاصت تحت الأمواج، ثم صعدت بعد لحظات فإذا بها تجد غرانت على مقربة منها، سبحا وسبحا حتى قررا أن لا فائدة من إتعاب نفسيهما، فأمامهما النهار كله.

فتحت ماندي منشفتها، ورمت نفسها عليها.. فهذا المكان دون شك أهدأ مكان في العالم... أغمضت عينيها، فشعرت حرارة الشمس تجفف جسدها في لحظات.

انتفضت حين أحست يد غرانت تدلك ساقيها بزيت مقاوم للشمس. فجلست.. لكنه دفعها مبتسماً لتنام ثانية، فقالت والضحكة تملأ كيانها:

- أستطيع القيام بهذا.

لكن كان هناك شيء مثير في الطريقة التي يدلكها بها. سرّعت لحركة البطيئة الدم في عروقها... وتمتم:

- هذا من دواعي سعادتي... ولا أظنك ستحرمينني هذه اللذة.

أيداهنها حتى تقبل عرض العمل، وماذا سيحدث بعد أن تصبح موظفة عنده رسمياً؟ هل سيبقى قاسياً معها، ملقياً على عاتقها ما لا طاقة لها به؟ هل سيجعلها تعمل حتى الإجهاد؟ إنها لا تثق به أبداً!

كانت معدتها تتقلص من مجرد ملامسته لها.. خفق قلبها بشدة وكادت تسمعه. ستقع الكارثة حين ترتفع يده وصولاً إلى منطقة قلبها... جلست بسرعة ومدت يديها إليه:

- أعطني الزجاجة.. أنا أفضّل أن أدلك نفسي.

تنفس فجأة بعمق وغضب. فانتفض نبض في صدغه وقست عيناه، لكنه أخفى ألمه بسبب رفضها.. عندئذ لعنت ماندي نفسها.. إنها تسيء دائماً إلى مشاعره. لكنها لو حاولت الاعتذار أو الشرح لظنها تتذرع. ومن الخير أن تتصرف وكأن شيئاً لم يكن.

صبت الزيت على راحة يدها وفركت جسدها إلى حيث قد تصل يدها. ثم نظرت إلى غرانت المستلقي على معدته ورأسه بعيد عنها:

- هل لك أن تدلك ظهري الآن.

اضطجع ببطء، وعلى وجهه غضب مكبوت:

- لا فائدة من الأسف الآن. أو من الادعاء. أعرف مشاعرك وأعرف أنك لا تودين جرح مشاعري، ردة فعلك لا إرادية. يلم تبوح لي بأكثر من أي شيء آخر، إنك تكرهين أن أتمسك.

- هذا غير صحيح.. فهذا لا يزعجني.. على الأقل ليس كما تظن.

سخر منها:

- لا تكره المرأة أن يلمسها رجل إلا لسبب واحد وهو شعورها بالاشمئزاز والنفور منه. فلا تحاولي اختلاق الأعذار، لأنها لن تغطي ردة فعلك. لقد كسبت خبرة كافية خلال السنتين الأخيرتين، وأستطيع من خلالها فهم ردات الفعل.

- يجب أن تعرف إذن أنني أقول لك الحقيقة!

جلس لينظر إليها بعينيه الحادتين:

- أخبريني إذن؟ هيا.. أسمعيني إياها، أنا منتظر.

تجنبت النظر إليه، تبحث عن سبيل ما لشرح الوضع له. ماذا تقول له، أتخبره بأنها منجذبة إليه انجذاباً قوياً لا تستطيع إنكاره. لكن هل سيصدقها؟ إنه مقتنع بأن ما من امرأة قد تنجذب إليه. يحس بأنه لا يملك ما يقدمه. وما من امرأة قد تغير وجهة نظره هذه.

قال بغضب:

- أرأيت؟ أنت عاجزة عن قول أي شيء!

- لا أدري كيف أشرح الأمر لكنني لا أجدك منفراً أبداً. وأحب أن تدلك لي ظهري.

مدت الزجاجة إليه، متمنية أن يقبل.. فقد تكون هذه على

الأقل، خطوة في الاتجاه الصحيح. تناول الزجاجة بعد تردد، لكن، بينما كانت حركاته قبل قليل ناعمة حساسة، أصبحت الآن فظة، لأنه راح يدلك ظهرها بسرعة كأنه مجبر على ذلك، ولم يحتج بطريقته تلك إلا لثوانٍ، أعاد بعدها الزجاجة إليها بفظاظة لا يمكن تجاهلها.. فسألته حزينة:

- لماذا أغضبك دائماً؟ أنا لا أقصد.. فالحياة أقصر من أن نقضيها في خصام.

- في هذه الحالة، تعلمي التفكير قبل التفوه بكلمة، فليس من السهل علي العيش مع تشوهاتي.

ابتسمت له بضعف، ومدت يدها تطلب الصداقة.

- سأحاول.

تناول يدها بعد تردد طويل لكنه لم يمسكها أكثر من ثوان معدودة، وقفز واقفاً:

- حان وقت الشواء.

وما هو إلا وقت قصير حتى أصبح كل شيء جاهزاً. فتحت ماندي الخبز وطلته بالزبدة، ثم حضرت السلطة بانتظار الشواء.. فقد كانت تتضور جوعاً.

حين أصبح كل شيء حاضراً كان غرانت قد تغلب على مزاجه العكر فراح يتكلم أثناء تناول الطعام، ذاكراً لها أن والديه ماتا في حريق غابة حين كان في الحادية عشرة من عمره وأنه عصامي بنى نفسه بنفسه.. وقد أمضى جزءاً من حياته مسافراً. وقد اتصل بسكان البلاد الأصليين:

- قضيت أسعد أيامي معهم، إن لهم أفكاراً غريبة.. لكنني أجدهم عرق بشري مثير للإعجاب.

بعد الغداء، استلقيا ثانية، وأحست ماندي بالنعاس لكنها لم

تع إلى أنها نامت إلا بعد أن استيقظت فجأة فوجدت رأسها على صدر غرانت. وحين حاولت التحرك اكتشفت أن ذراعه كانت فوقها، فنظرت إليه وإذا به غارقاً في نومه.

تساءلت كيف أصبحا في هذه الوضعية، كما تساءلت عما إن كانت هي من تسللت لتلتصق بصدره وتنام. أم أنه هو من جذبها إليه.. لكن الأمر لا يهم، فهي الآن هنا تنام على صدره.

استغلت الفرصة فراحت تمعن النظر في وجهه، إنها المرة الأولى التي تتمكن فيها من هذا دون أن يظنها تحدق في جرحه. ولم يكن على وجهه أي عداء، بل ابتسامة، مما جعلها تتساءل عن الأفكار التي تراوده. كان كل شيء حتى تلك الخطوط التي شقتها في وجهه السنتين الأخيرتين من المعاناة ناعمة غير مرئية تقريباً... هناك هشاشة حوله جعلت أنفاسها تعلق في حنجرتها.

خارجياً هو قاس جلف.. لكن تحت هذه الواجهة الخارجية رجل يخشى أن ينظر إليه الناس.. إنه يكره أخاها لما فعله به، ويكره فاليري بسبب تصرفها الشائن بل هو في الواقع يكره الدنيا كلها.. بدأت معها فقط عقده تتحلل. فهي على ما تعتقد المرأة الأولى التي تقترب منه إلى هذا الحد منذ الحادثة.

لكن، كيف السبيل إلى تجاهل جروحه، خاصة ذاك الذي في وجهه والذي كان يجذب نظرها إليه مرات ومرات... وكأنه علامة استفهام عويصة. راحت دون أن تدري ما تفعل. راحت تمرر أصابعها على الندبة، تتحسس الجلد غير السوي، دون أن تشعر بأية كراهية أو اشمئزاز.

لو أن رجلاً آخر غير أخيها فعل به هذا! لسعى يتقرب إليها أكثر. لكنها تذكره دائماً به ولن يتركها تقترب من حياته الخاصة. أيعتقدها ستجتمع بأخيها. أو يستخدمها طعماً؟

صدمتها هذه الفكرة المفاجئة.. لماذا لم تفكر فيها قبل الآن؟ لا شك في أنه طلب منها العمل لهذا السبب. لكنها ببقائها هنا ستقود رايان إلى الخطر. قد يكون مجرماً، أو قاتلاً.. لكنه أخوها.. وهذا يعني لها الكثير الكثير، ألا تكفيها مأساة والديها اللذين خسرتهما، فكيف تقبل بخسارة رايان أيضاً. ربما هما الآن منفصلين، إلا أنه ما زال عائلتها كلها، وهي تعلق الأمل على هذا كما لم تعلقه على شيء آخر في حياتها.

لم تنتبه إلى أنها أثناء تفكيرها هذا كانت ما تزال تضع يدها على وجهه حتى أطبقت أصابعه على معصمها وأبعد يدها عنه، فظنت أن شيئاً قد ضربها.

صاح بها ووجهه شاحب كوجوه الأموات:

ـ ماذا تفعلين؟ إذا لمستني ثانية هكذا أقتلك كما سأقتل أخاك اللعين!

* * *

٥ ـ صداقة لا ترد

قفزت ماندي من مكانها وكأنها أصيبت بطلقة نارية.. ارتدّت إلى الوراء وعيناها مشعتان ارتياعاً.

ـ وهل آلمتك؟

كان صدرها يعلو ويهبط وأنفاسها تتهدج وقلبها يخفق قوياً بين ضلوعها. قال لها بخشونة:

ـ لم تؤلميني بالطبع. لكنني لست مخلوقاً عجيباً في سيرك، وأنا بغنى عنك وعن لمسك جروحي. لقد انجذبت إليها رغماً عنك. أردت رؤية ما إذا كان ملمسها يبعث النفور في النفس كما منظرها؟

ارتجفت ماندي، ثم استوت جالسة:

ـ لا أشعر بالنفور منها.

ـ لا أريد الشفقة التي أعتبرها أسوأ ما في الكون. ربما حظيت بها من ماكس ومن الآخرين الذين تجاهلوها بعد أن اعتادوا عليها.. وأنصحك بأن تحذي حذوهم، هذا إذا كنت ترغبين في علاقة عمل ناجحة.

ردت بهدوء:

ـ أنا لا أشعر بالأسى عليك.. أنت تحمل على كاهلك وزراً كبيراً.. ولا أجدك تستريح مع امرأة أبداً حتى تتحرر منه، عجباً

كيف أنك لا تنظر إلا إلى جرحك ولا تفكر إلا فيه.. حسناً أقول لك إن هذا غير صحيح، أعترف أن جروحك ظاهرة لكن يسهل سيانها. فمن يملك شخصية كشخصيتك تزول أمامها كل معايير الجمال. أنت تملك كل ما يرغب فيه بل أكثر مما قد يرغب فيه رجل. وإذا كان جرحك يزعجك، فلماذا لا تطلق لحيتك أو تجري عملية تجميلية؟

ـ ما سألتك رأيك، ولا أريده. إن ما أفعله بوجهي هو شأني وحدي. أما بالنسبة إلى يومي هذا فأشكرك لأنك أفسدته. حسبت نفسي أقدم لك معروفاً، كان يجب أن أعرف أكثر من هذا.

اندفع بوحشية واقفاً وبدأ يعيد الأغراض إلى سيارته. ثم ارتدى سرواله الأسود وقميصه الأبيض والتفت إلى ماندي:

ـ جاهزة؟ إذا لم تكوني جاهزة فسأتركك هنا. لا تخشي أن يجفوني النوم بسبب ما حدث.

سارت نحو السيارة، وصعدت إليها ثم ربطت حزام الأمان مبقية على أكبر مسافة ممكنة بينها وبينه، لقد وجدته منذ أن التقته أول مرة سليط اللسان وما زال كما هو. كيف لرجل أن يكون ملعوناً إلى هذه الدرجة في معاملة الناس، فقد كانت كلماته تجول في نفسها كسكين حادة تمزقها وتجعلها تنتفض ألماً عند كل جرح.

إن فاليري دون شك كانت أقسى النساء قلباً وأبردهن شعوراً فقد حطمت بتصرفاتها الطائشة حياة غرانت.. ولو تريثت قليلاً، لاكتشفت أن الجرح ليس بالسوء الذي كانت تخشاه.. ولو بقيت لرضي بتشوهه.

كان الجو بينهما مكهرباً حتى توقعت أن ترى شرارات تتطاير بينهما. ومع أن أحداً منهما لم يتكلم، إلا أن التوتر الذي طغى على جو السيارة، كان كثيفاً كثافة لم تختبر مثيلها في حياتها.

تساءلت عما إذا كان يجب عليها أن ترحل كما تساءلت عما إ
كان فعلاً يستغلها للوصول إلى رايان. فباله لن يطمئن حتى
يواجهه، وحتى يوقع فيه العقاب العادل بيده أم بيد القانون.

ووجدت نفسها ممزقة بين طريقين، كان جزء منها يصرخ
لحماية رايان، وما من سبيل إلى ذلك إلا بالعودة إلى انكلترا.
وجزء آخر يحذرها لأنها تقترب بشكل خطير من الوقوع في حب
هذا الرجل، كان فيه جاذبية تشدها إليه لا قدرة لها على مقاومتها
إنه يجذبها كما يجذب المغناطيس المعدن.

إنه رجل يفوق الرجال، تكبراً وإباء. فيه رجولة وعداوة لا
يمكن إنكارها. ليتها قابلته قبل الحادثة، حتى ترى ما كان عليه قبل
أن يتحطم غروره.

لم يكن لديها أدنى شك في أنه سيتغلب على ألمه في النهاية
لكن هذا قد يقتضي وقتاً طويلاً بل قد يقضي عمره كله على هذه
الحال، لكن ما من رجل قد يترك أمراً كهذا يؤثر فيه إلى ما لا
نهاية.

ليتها تستطيع مساعدته. إنها مستعدة ومتحمسة لها، وذلك
لتؤكد له أنه يحمل صليبه على لا شيء ولتقنعه بأنه إن سمح لنفسه
بالنسيان أصبحت حياته أجمل وأمتع وأحسن... لكن لا طائل من
هذه الأفكار كلها، فهو لن يسمح لها أبداً بالاقتراب منه إلى هذه
الدرجة.

حين وصلا، قصدت المطبخ متسائلة عما تعدّه من طعام لا
تشعر برغبة في إعداده.

التفت بماكس فابتسم لها ابتسامته المرحبة المعتادة.

- لقد تحدثت إلى الريس منذ برهة، فقال إنه لا يريد أن
يتعشى. أعتقد أنكما أمضيتما نزهة رائعة!

وكان في عينيه الزرقاوين الفاتحتين غمزة ذات مغزى،
تساءلت عما كشف غرانت له، وقالت:

- هذا صحيح، وأنا لست جائعة أيضاً.

- سأعد لنفسي في هذه الحالة سندويشاً، فلا تشغلي نفسك من
أجلي. سررت لأنك تمتعت بيومك، أنت تستحقين هذا. قال
غرانت إنك ستبقين معنا فترة، كما قال إنه سيعتبرك في عداد
الموظفين.. أهذا صحيح؟

لم تستطع إخفاء دهشتها:

- لكنني لم أردّ على طلبه بعد.

- إنه على ما يبدو واثقاً منه. لقد أقنعك اليوم؟

- يمكن أن تقول هذا. إن لم يكن هناك من عمل أقوم به فمن
الأجدى أن آوي إلى فراشي.

- ما رأيك بنزهة في المزرعة؟ أنت لم تشاهدي الخيول. متى
ندمت علينا؟ منذ ثلاثة أسابيع؟ عيب عليك يا فتاة.. ألا تحبين
الخيول؟ لدينا منها ما هو رائع حقاً.

- أنا لا أهتم بها.. لكنني سأحب مرافقتك الآن.

لكن حين خرجا إلى الفناء الخلفي، تمنت لو رفضت دعوته
فقد وجدت غرانت يسرج جواداً وحين رآها مع ماكس دهش
لسألها:

- أتبحثين عني؟

رد عنها ماكس:

- كنت أريها المكان.. أنسيت أنك لم تفعل هذا. وإذا كانت
ستصبح موظفة رسمية، فمن حقها أن تتعرف إلى مكان عملها.

نظر غرانت إليها ببرود:

- أهذا ما تريدين؟

ـ لقد دفعني الفضول دائماً. لكنك كنت تقول إن علي الابتعاد عن الرجال، لذلك لم أهتم.

ـ ما دمت هنا فتعالي معي لامتطاء الخيل. أتجيدين الفروسية؟

كان عرضه هذا سيسعدها في ظروف أخرى. لكن مزاج غرانت كان نكداً وهي لا تريد أن تقضي معه وقتاً وهو على هذا الحال.

ـ لا.. شكراً لك، فلا أرتدي ثياب الفروسية.

ـ سأنتظرك.

لم تصدق أنه يرغب فعلاً في مرافقتها. لكنها هزت رأسها وأشاحت بعينيها عنه:

ـ الرد ما زال لا.

ـ تعنين أنك لا تريدين الخروج معي؟

انطلق السؤال المشحون بقوة وغضب.. فردت:

ـ فسّر الأمر كما يحلو لك لكنني ما قصدت ما قلته.

تبادلا النظرات لحظات، أحست خلالها أن عينيه تستحوذان عليها. فانقبضت معدتها، وتقطعت أنفاسها. إذا كان يؤثر فيها غاضباً، فماذا سيفعل لو خرج عن خطه وكان لطيفاً معها؟

ربط آخر حزام للسرج ثم اعتلى بحركة غاضبة سريعة صهوة الجواد. ثم ابتعد عن الفناء دون أن يلقي عليها ولو نظرة. فندمت على قرارها فوراً وتمنت لو قبلت دعوته، ربما كان آسفاً على مظهره من غضب عند الشاطىء، وكان يريد تعويضها. وإذا كان هذا قصده فعلاً، فقد أفسدت عمداً الفرصة... آه يبدو أنها تجيد إفساد كل شيء.

التفتت إلى ماكس بابتسامة جافة:

ـ أظنني رأيت ما يكفي. سأوي إلى فراشي وأستلقي لأقرأ

كتاباً. كان يومي متعباً.

نظر إليها نظرة العارف:

ـ أنت بلهاء ماندي... غرانت شاب عظيم.. ويجب أن تقبلي صداقته، فهو لا يعرضها دائماً.

ولم ترد عليه، فكل ما يراه هو عرض للنزهة، ويظن أن غرانت قد بدأ يتغلب على مشاكله، وهو يلومها لأنها لا تتجاوب معه.

ـ لدي أسبابي ماكس. لكنها ليست أسباب أود مناقشتها. آسفة، لا أريد إغضابك. لكن هذا هو ما عليه الحال.

هز رأسه وكأنه فهم مأزقها وقال:

ـ هل أفهم من هذا أنك ستحضرين الفطور في الصباح؟

ضحكت، فهو لا يترك فرصة دون أن يؤكد فيها بغض الرجال لطعامه. هزت رأسها:

ـ سأفعل.

ثم سارت نحو المنزل.

لم تنم تلك الليلة كما يجب، فقد أزعجتها صراصير الحصاد أكثر من أي وقت مضى، لكنها نامت أخيراً واستيقظت باكراً قبل طلوع الشمس على زغردات الطيور وصراخها. لقد قرأت عن هذه الطيور لكنها للمرة الأولى تلاحظ أن تغاريدها تختلف عن تغاريد الطيور المعروفة. أحست وكأنما طيور العالم كلها اجتمعت خارج النافذة، وكانت هذه أجمل طريقة تستقبل بها يومها.

لكن يجب ألا تنسى أنها مضطرة إلى الرد على طلب غرانت. كان قد جزم أنها باقية، وقد أبلغ ماكس بموافقتها، وهذا ما أزعجها فعلاً. علمت أنها ستندم إذا قبلت لمدة سنة ليست بالوقت القصير خاصة إذا كانت غير سعيدة.

لكنه أدهشها فقد أنقذها مؤقتاً من اتخاذ القرار، ذاك أنه لم يظهر عند الفطور، فلما سألت ماكس عنه أجابها:

ـ لقد خرج على غير عادة باكراً..

ـ ألن يعود ليتناول فطوره؟

هز ماكس رأسه:

ـ قال، لا تتوقعيه حتى تريه.

قصدت المكتبة، لكنها لم تستطع إبعاده عن أفكارها، وعندما مضى الوقت بدأت تتساءل عما إذا أصيب بحادث ما، أهو مستلق الآن فاقد الوعي؟ وكانت كلما اتخذت أفكارها هذا المنحى ازدادت قلقاً عليه. وفي النهاية عندما فقدت القدرة على الصبر، سارعت تبحث عن ماكس، فلمّا وجدته قالت إنها تريد التفتيش عنه.

ـ هل لي أن أستعير جواداً؟

ـ لن يفيدك هذا.. سيعود قريباً.. لا تخافي، لن يصاب بأذى.

وما كان أمامها إلا أن ترضى بالواقع لكنها لم تستطع التركيز على عملها، وراحت ترتكب أخطاء إثر أخطاء حتى توقفت أخيراً عن الطباعة. وأمضت الوقت أمام النافذة تنظر خارجاً.

كانت الحقول الممتدة أمامها فارغة، والسماء زرقاء حارة.. وكان كل شيء حتى الطيور هاجعاً في مثل هذا الوقت. لم تصدق ماندي أنها قد تشعر بمثل هذا القلق لغياب غرانت. ولا سبب إطلاقاً يدعوها لهذا القلق.

حضرت طعام الغداء بحركات أوتوماتيكية، لكن توترها تضاعف عندما لم يأت لتناول الغداء أيضاً.

ـ ماكس.. أعتقد أن علينا أن نفعل شيئاً.

حك رأسه مفكراً:

ـ أجل.. فليس من عادته أن يغيب طويلاً.. لكن كيف نعرف أي اتجاه سلك؟ إننا كمن سيبحث عن إبرة في كومة قش.. وهو إلى ذلك قد ينهرنا إذا وجدناه، خاصة إذا كان يطلب الهدوء والسكينة.

ـ لا آبه لما يفعل.. فأنا قلقة.. حقاً قلقة!

نظر إليها بخبث:

ـ لقد وقعت في حب الرجل يا فتاة.. أليس كذلك؟

هزت رأسها بائسة.. فأكمل:

ـ عجباً أنت تدهشيني حقاً.. ظننتك تكرهينه.

ـ أنا دهشة من نفسي نظراً للطريقة التي يعاملني بها.. والمشكلة أن هذا لن يفيدني، فما زلت شقيقة رايان. كان أخي وصمة سوداء في سجلي منذ البداية، لذا لن يسمح غرانت لنفسه بالتورط معي.. فأنا أعيد إليه الذكرى حية.

ـ أمر مؤسف.. ستفيد غرانت امرأة مثلك، فليس من الطبيعي أن يغلق الباب عن الدنيا. وهذا لا يعني أنني أسفت عندما تركته ڤاليري.. فلقد كانت فاسدة إلى أقصى حد، لقد كانت تجري وراء ماله، لكنها كانت غبية.

ـ إنه يعرف هذا الآن... هل حزن كثيراً يومها؟

ـ لا يكشف عادة عن مشاعره. لكنني أعتقد أن كرامته جرحت أكثر من أي شيء آخر.

ـ وما تزال مجروحة حتى الآن. لقد تبادلنا بضع كلمات بالأمس.. ولم أصدق أنه كان يمد لي غصن زيتون حين عرض علي مرافقته.. ألا يمكن أن نبحث عنه ماكس؟

ـ أعرف ما تشعرين به.. لكن لنمهله بعض الوقت فلا معنى لقلقك هذا.. سيعود حين يكون مستعداً.

وقد حدث ما توقعه ماكس، فقد سمعا وقع حوافر في الخارج، سارعت إلى الباب فرأت غرانت، مغبراً متعباً، لكنه على ما يرام.. وبدلاً من أن تعترف له بقلقها عادت إلى المطبخ وحين دخل بعد لحظات كانت تشغل نفسها بتنظيف الصحون.. إن أمراً واحداً يقال عن هذا المنزل وهو أن فيه كل وسائل الراحة التي يمكن تصورها.

- ألديك طعام لي؟

أجفلها السؤال الأجش، فالتفتت إليه لكن صحناً من الصحون وقع من يدها... لم يهتم بما إذا كان غيابه أقلقها أم لا.

أخرجت الطعام من الفرن ووضعته على الطاولة، ثم وضعت له السكين والشوكة وبعض الخبز السميك ليبلله بمرق اللحم كما يحب معظم الرجال أن يفعل. وتراجعت عنه.. فما عاد أمامها ما تفعل، لكنها كرهت أن تذهب.. فقال لها:

- اجلسي.. بالله عليك!

انتفضت مرة أخرى من صوته الأجش، فجلست على المقعد الخشبي قبالته.. تكون غبية إذا تركت هذا الرجل يؤثر في أعصابها إلى هذا الحد.

- قلت إنك ستعطيني ردك اليوم... فهل قررت بعد؟

كانت ضربات قلبها العنيفة تؤلمها، وتصيح بجنون داخل صدرها، حتى كادت تشعر بها تنفجر في أسفل عنقها.

- لست متأكدة بعد.

- أتودين البقاء؟

ووضع بعضاً من البطاطا المهروسة في فمه.. فقالت:

- اعتقدت أنك غيرت رأيك، بعد الطريقة التي تصرفت بها معي يوم أمس وقد حسبتك تكره قربي منك.

- أوَ أنا غبي إلى هذا الحد ماندي؟.. يا الله.. لا علاقة لما حدث بطلبي. إنهما أمران منفصلان تماماً، ما أطلبه منك هو علاقة عمل، لا شيء آخر.

لكن لماذا دعاها إلى الخروج معه بالأمس؟ أللنزهة فحسب؟ ترى هل أفسد لمسها جرحه عليها كل شيء؟ فلقد كان له أثر مأساوي عليه، وهي تفهم مشاعره لأنها لمست جزءاً حساساً معرضاً للخطر.

وها هو الآن يقول إنه لن تكون هناك فرصة أخرى للاقتراب منه... فابتلعت ريقها بصعوبة، وهي لا تدرك أن عذابها ظهر في عينيها. قالت وكأنها تتحداه:

- لم أفكر في أن في الأمر شيئاً آخر، لكن كيف أربط نفسي سنة كاملة. لا أحسبني أحب البقاء هنا هذه المدة... كما أن ما أقوم به الآن بعيد كل البعد عن اختصاصي.

- أوه.. صحيح.. كدت أنسى.. يجب ألا تضيعي مواهبك الفذّة.

كانت تكره من يسخر من عملها:

- لا أظنني طلبت منك هذا.

فابتسم ساخراً:

- مدة التعاقد اثنا عشر شهراً، فإما أن تبقي، وإما أن ترحلي. قرري الآن هيا.

لم تعرف أنه يعطيها إنذاراً نهائياً. كانت تظنه يريد منها أن تبقى كما حسبته سيصاب بخيبة أمل إذا رفضت لكنه على ما يبدو غير مكترث أو عابىء بها أبداً، وكأنه أمضى وقتاً يفكر.. ربما هذا هو سبب غيابه... وربما ندم على طلبه ذاك، ويأمل الآن أن ترفض. نظرت إليه بقلق:

- ما زلت غير واثقة.

- يا الله.. أنا لا أطيق النساء اللواتي لا يعرفن ما يردن! كنت سأقسم بالأمس أنك ستوافقين.. فما الذي جعلك تتغيرين هكذا؟

كادت تقول له «أنت.. أنت من فعل بي هذا.. أنت وعجرفتك الغبية اللعينة، وتصرفاتك الرعناء»، لكنها قالت:

- لقد سبق أن ذكرت لك أن علمي سيذهب سدى.

ضرب الطاولة بقبضة يده:

- أنت امرأة ماندي لا رجل! فلماذا اخترت مهنة كهذه؟

نظرت إليه ببرود:

- لأنها ما أريد ولأنها كانت مهنة والدي.

- إذن كان على رايان أن يتبع خطاه. هل كان بارعاً بعمل ما؟ كان على والدك أن يساعده هو لا أنت.

- حين أريد رأيك سيد مونتغمري، أطلبه منك!

وهبّت عن مقعدها غاضبة، ثم توجهت إلى باب المطبخ كالعاصفة. فقال بسرعة:

- أفهم من هذا أنك سترحلين؟ إن هذا ليؤسفني فقد أثبت جدارتك في العمل المنزلي والمكتبي الذي أرحتني منه. ويبدو أنني الآن مضطر للعودة إليه، فلن أسمح لامرأة أخرى بدخول منزلي.

لم تكن تدري ما إذا كان ينتقي كلماته عمداً، لكنها لم تستطع تجاهل لهجة الرجاء فيها. فنظرت إليه والاستسلام على وجهها، وتمتمت:

- سأبقى.. غرانت!

اللعنة عليك! سيكون هذا أصعب ما أقوم به، سأبقى لأنني أحبك، لكنك لن تعرف هذا. وعادت إليه ببطء:

- ألن أحظى بوقت للراحة؟ أتسمح لي بأن أتصرف كما يحلو

لي؟

نظر إليها وعيناه ملؤهما الشك:

- أتطلبين مني وقتاً للتفتيش عن رايان؟ ظننتك تخليت عن هذا. ألم يكن في نيتك العودة إلى بلادك؟

- أنت تحاول إرباكي. ما أطلب إلا أن أعرف حقوقي.

- أي أنك ستقومين بأي عمل حين يطلب منك على أن يكون الوقت المتبقي لك؟

- لا أجد هذا مرضياً.. أريد ساعات محددة.. وهذا حقي.

كانت تنظر إليه بخيلاء فهز كتفيه والتوت شفتاه:

- لا أستطيع أن أحدّد وقتاً محدداً، فأنت تقومين بوظيفتين في آن واحد. كانت السيدة كيلي تعمل دواماً كاملاً.

- لم تكن السيدة كيلي تقوم بعملك المكتبي.. وكانت تجد لنفسها وقتاً كافياً.

- متى تبدئين عادة بتحضير الفطور؟

- من الثامنة.

- ومتى تنهين وجبة المساء؟

- في الثامنة.

- إذن ستقومين بالعمل من الثامنة صباحاً إلى الثامنة مساءً. هذا عدا عن وجبات نهاية الأسبوع.

صاحت به:

- اثنتا عشرة ساعة يومياً؟ وكم ستدفع لي أجراً؟

- سيكون أجراً مرتفعاً. أتشيرين إلى أنك لن تستطيعي القيام بالعمل؟

- إنه لا يزيد عما اعتدته في الأسابيع الأخيرة، أستطيع القيام به، إذا كان يستحق ما سأتقاضاه.

- سأتأكد من هذا. لقد لقبوني بألقاب عدة لكن لم يكن من بينها لقب الشرير. ومن حقك أن أدفع لك بسخاء ماندي.. فأنت تقومين بعمل جيد.

أحست بالراحة حين تركها أخيراً. فذهبت إلى غرفتها متسائلة عما إذا قد أصابت فيما فعلت. قد يحدث أي شيء خلال هذه المدة، فإن بقيت علاقتها معه على هذه الحال فسيكون أمامها وقت عصيب.

حين ذهبت في الصباح التالي إلى المكتبة كان غرانت بانتظارها مع العقد. أحست بالمرارة فهو على ما يبدو لا يثق بها. أخذت منه العقد ثم قرأته بدقة، فلاحظت أنه اشترط ألا تترك العمل قبل مدة سنة. وإذا وقعت فلن تلوم سوى نفسها، فهو لا يضغط عليها، إلا عاطفياً، وهذا ما لا يدركه. ومع ذلك وقعت عليه رابطة نفسها بمستقبل مختلف جديد.

وتغيرت الأمور بعد أن أصبحت موظفة رسمية.. كان يعاملها بطريقة عملية صارمة.. ما من نزهات، بل أوامر وأوامر وما عليها إلا الطاعة.. لكنه ما عاد يتذمر عندما يراها تستخدم البركة، في أوقات راحتها التي كانت في المساء أو بعد الغداء حين يكون أمامها ساعة راحة قبل العمل المكتبي.

أما تصرفات موظفيه فتغيرت، فبعدما كان الرجال يترددون بالتقرب منها، أصبحوا الآن يتحدثون إليها بصداقة وود. وكان غرانت يقطب جبينه كلما رأى هذا لكنه لم يعلق بكلمة ولو فعل لأوقفته عند حدّها

مر أسبوعان لم تستطع فيهما أن تتمتع بوقت راحة خارج المزرعة. أما الراتب الذي كان يدفعه لها فكان أكثر من سخي، وهذا يعني أنها قادرة في فترة وجيزة على شراء سيارة.

فجأة، قال لها غرانت في أحد الأيام:

- تستحقين فرصة يا ماندي.. فليطبخ ماكس غداً. سأصطحبك إلى منطقة الشلالات.

لم تستطع إخفاء دهشتها:

- وماذا فعلت لأستحق هذا؟

- لقد أثبت جدارتك، كما أن هناك صديقاً لي في تلك المنطقة أود زيارته.

- أنا مسرورة لأنك فكرت فيّ.

نظر إليها وتعبير غريب على وجهه:

- ليس هناك فتيات كثيرات يعملن مثلك بجهد دون أن يتذمرن. أنت فتاة رائعة.

كان هناك شيء ما في الطريقة التي يرمقها بها وهي تدل على أنه ليس منيعاً ضدها كما يدعي. راح منذ اكتشفت حبها له يبتعد عنها أكثر فأكثر، كانت علاقتهما علاقة عملية محضة.. وما كان يكلمها إلا ليعطيها الأوامر التي تسرع إلى تنفيذها. وكانت عندما تستخدم البركة يغيب ولا يعود إلى استخدامها حتى تذهب. في بعض الأحيان كانت تقف أمام نافذتها المطلة على البركة، فتشاهده يقف هناك دون أن يدري أنها تراقبه. وكانت تلك اللحظات الوحيدة التي تراه فيها مسترخياً، مع نفسه. وهي لحظات تمنت لو تشاركه فيها.. لكن ما زادها تعاسة عودته إلى قوقعته.

وها هو الآن يمد لها يد الصداقة مرة أخرى.. وهذه المرة لن تخطىء ولن تقوم بأي حركة قد تفسد هذه العلاقة.

* * *

٦ ـ زغردة قلب

لم يمر النهار التالي بسرعة وكانت ماندي خلاله مشارة الأعصاب. تعلم أن هذا غباء، فلا يريد غرانت إلا منحها فرصة بعيداً عن عملها اليومي الرتيب، وهو لن يستغل الفرصة لإغوائها. لكن كيف يقدر على هجر النساء هكذا؟

إنه يقضي معظم وقته في رعاية الجياد، ولا تدري كيف يستطيع قضاء هذا الوقت كله معها. تعرف أن عليه رعاية أفراس خاصة منها تلك التي يرسلها أصحابها للاستيلاد. فالأفراس تكون متوترة قبل أن تضع صغارها وتحتاج إلى رعاية خاصة لكنه يبالغ في ما يقوم به.

وهناك أيضاً واجب الحفاظ على الاسطبلات نظيفة، وهو عمل لا نهاية له، وقد يدوم إلى ما لا نهاية دون السماح بأي تذمر... وها هي مزرعته شاهد على الدقة والنظام.

كانت تعلم أن أفضل ما قد يسعد غرانت هو تدريب الجياد، كان يستيقظ باكراً، يأخذ لنفسه أضخم وأخطر الفحول التي يجد صعوبة في السيطرة عليها. ولقد شاهدت بعضها تتلاعب، لكنه كان دائماً يجبرها على الاعتراف بمن هو سيدها.

عندما خرجت قاصدة سيارته المنتظرة كان قلبها يخفق متألماً. لكنها وعدت نفسها أن يكون هذا اليوم يوماً تذكره إلى الأبد لذا

يجب ألا ترتكب من الهفوات ما قد يكدره.

بدا لها غرانت ساحراً جذاباً وهو يرتدي سروالاً وقميصاً عاجي اللون. أبرزت الألوان الفاتحة اسمراره الساحر، وأدفأت ابتسامته الساحرة قلبها. شعرت عندما قعدت قربه بحرارة لم يكن مردها الجو أبداً. ترى ماذا ستكون ردة فعله لو اقتربت منه وقبلته؟

سرعان ما وصلا إلى الطريق الرئيسية الموصلة إلى الغابة الكبرى. ومع أنهما كانا صامتين إلا أنها لم تشعر بالقلق لأن الجو بينهما اليوم هادئاً. تمتعت بما يحيط بها من مناظر رائعة، ومن حدائق جميلة وبلدات ضيقة الشوارع. رأت وهما يسيران خزاناً ضخماً، قال إنه يؤمن المياه للمناطق المجاورة.

ـ هذه المنطقة رائعة لكنها وعرة إذ لم يستطع أحد تجاوز الوادي وصولاً إلى منابع النهر في أسفل الجبل فقد كانت الصخور الصماء المرتفعة تحول بينهم وبين ما يريدونه. لكن كان من المهم أن يجد الباحثون طريقاً ليقطعوا الوادي وصولاً إلى الجهة الأخرى. وقد كان لهم ذلك بمعاونة الدولة التي جهّزت فريق عمل كامل استطاع صدفة بعد ثلاث سنوات من إيجاد طريق سهل يفضي إلى الشلالات التي نقصدها الآن.

كانت ماندي تصغي إليه بشوق:

ـ ما هي هذه القرى؟

ـ هذه المنطقة تشمل أربعاً وعشرين قرية مختلفة، أعرف أنك ستحبين هذه المنطقة الجبلية في الخريف لأنك ستشعرين وأنت تمشين فيها وكأنك تسيرين في شارع انكليزي. إذ أن أشجارها تحافظ على اخضرارها طوال السنة.

عندما كانت السيارة تعبر الطريق الجبلية وصولاً إلى الشلالات شاهدت ماندي أشجاراً مزهرة تتجه نحو واد صغير شديد الانحدار

في نهايته جسر قديم. وبعد أن ابتعدت السيارة عن الطريق الرئيسي تابعت سيرها متخذة طريقاً ملتوياً.

لمحت ماندي من خلال فسحات تسمح بها الخمائل الخضراء التي تحد الطريق على الجانبين وادياً عظيماً ثم اقتربت السيارة من فسحة صخرية هي أشبه بعنق الزجاجة الضيق، أطلت على الجهة الأخرى للوادي. وهناك توقفا:

- إنها أعلى نقطة في هذا الجبل وهي تطل على الوادي من الاتجاهين. وتشرف على النهر والبحيرات.

ثم لم يلبثا بعد ذلك أن تابعا السير حتى توقف من جديد ليقول، هذا موقع «الصدى» في الوادي:

- اصغي جيداً.. أتسمعين أصوات الطيور تتردد مرات ومرات وكأنها صوت واحد؟ أتودين التجربة؟

حين نزلت وصرخت بلطف، تردد صدى صوتها مرات كثيرة وبشكل مضخم، ثم عادت إلى السيارة مسرورة:

- ما هذه الظاهرة العجيبة، لكن لماذا لون الجبال مائل إلى الأزرق؟

- إنها ظاهرة علمية، سببها انعكاس النور على ذرات الغبار الممتزجة برذاذ الماء المنتشر في الهواء من الشلالات القريبة، ويزيده تأثيراً زيت خاص متبخر من أشجار الكاليبتوس لكن هذه الظاهرة لا تخص هذه الجبال فقط بل قد تجدينها في بلاد كثيرة في العالم مع أن الناس هنا لا يؤمنون بهذا.

لمحت ماندي فجأة تلفريك يعبر الوادي من فوق الشلالات مباشرة، فصاحت بطيش:

- اوه.. يجب أن نركب إحداها!

فابتسم:

- أوَ لن تخافي؟ المكان مرتفع جداً.. قد يبلغ الثلاثمائة متر.

التفتت لتقول بكل ثقة:

- بل سأحب هذا.

فكان أن توجها إلى محطة الانطلاق، وانتظرا على المنصة حتى وصلت عربة ترجّل منها ركابها ثم صعدا إليها وما هي إلا ثوان قليلة حتى سارت فبلغ قلبها حنجرتها، لكن سرعان ما اعتادت على التأرجح في الفراغ.

كان منظر الشلالات من علو رائعاً وكذلك الصخور البركانية التي تحيط بمجرى النهر.. وما ان وصلا إلى الناحية الأخرى من الوادي حتى أدركت ماندي أنها كانت تتمسك بذراع غرانت وكأن حياتها كلها تعتمد على صلابة ذراعه. أما ذراعه الأخرى فقد كان يلفها كالدرع حول كتفيها، يضمها لتستريح على صدره.. وكان هناك شيء مثير ملحوظ في اقترابها منه في هذا العالم الفضائي الرائع.

لن تنسى هذه المناسبة ما عاشت. وحين أخفض رأسه ليطبع شفتاه على رأسها، رفعت نظرها إليه وقد اتسعت عيناها، ولم تكن تعي أنهما خضراوان كالوادي تحتهما. وسألها بنعومة:

- هل تمتعت بهذا؟

هزت رأسها وهي تشعر بأن مشاعرها حبست الكلمات في حنجرتها.. فالتجربة مثيرة وجميلة، تستحق الذكرى. تناغمه مع مشاعرها، لطفه، أمران لم تشاركه بهما من قبل. ولم تكن قد اعتادت أن تراه بهذا اللطف لذا أرادت تستفيد من مزاجه هذا إلى أقصى الحدود. وفي طريق العودة التصقت به أكثر فكافأها باحتوائها بقوة:

- خائفة؟

- قليلاً.. لكنني مضطربة الأعصاب أكثر من أي شيء. وكأننا في عالم مختلف. وأنا سعيدة لأنك أحضرتني إلى هذا المكان كما أنني أقدر لك ما تبذله من وقت في سبيل أن تريني هذه المناظر.

فابتسم:

- لقد سبق أن قلت لك إنك تستحقين هذه النزهة وما ذلك إلا لأنك فارسة مغوارة في عملك. وأعتقد أن علي شكر رايان لأنه السبب في مجيئك إلى هنا.

ليته لم يذكر أخاها، فاسمه يرمي ظلالاً قاتمة على هذا اليوم المشرق.. فما كان إلا أن صاحت بإثارة:

- اوه.. انظر... هناك خط سكة حديد للسواح.. هل نذهب إلى هناك أيضاً؟

ضحك:

- أنت شيطانة تستحقين العقاب! هل أنت قادرة على تحمله؟

إذا كانت تتحمل قربه منها، فبإمكانها تحمل أي شيء.. فما الدم المتدفق بقوة في شرايينها، وما ضربات قلبها التي تضج في رأسها، بسبب هذه الرحلة البسيطة في المقطورة السلكية، بل بسببه هو وحده.

قالت بهدوء:

- أستطيع تحملها.

- لم تستطع ڤاليري تحملها بل لم يحدث أن وافقت على الدخول إلى المقطورة المعلقة بين الأرض والسماء. مع أنها آمنة وتجري عليها الصيانة والرقابة اليومية.

تساءلت ماندي في نفسها بقلق، لماذا ذكر ڤاليري في حديثه الآن.. إن ذكر هذه المرأة أفسد سعادتها أكثر من ذكر رايان وذلك لأنها تكره التفكير بأن غرانت كان يوماً مع امرأة أخرى.

ما ان عادا إلى منصة الانطلاق حتى توجها ووقفا في صف الانتظار بانتظار القطار السياحي... بعد أن ركباه تحرك عابراً نفقاً صخرياً انفتح فجأة على نفق ضيق في نهايته منظر لا ينسى هو للجبل الساحر. وما إن أطلت عليهما الشمس من جديد حتى فوجئا بانخفاض شديد اضطرت ماندي معه إلى أن تغمض عينيها. لكنها أحست بالراحة والسعادة فقد اشتدت ذراع غرانت حولها وجذبتها إليه أكثر فأكثر.

كانت الرحلة تستحق كل الخوف في سبيل هذا العناق، وهذا القرب منه. فما من ظروف أخرى قد يحضنها فيها على هذا النحو الذي جعلها تحس بخفقات قلبه تهدهدها. ولم تكن ضربات متسارعة كضربات قلبها، لكنها أسرع بقليل من العادة، أم أن هذا أمل من وحي خيالها؟ ولماذا تهتم؟ فهذه لحظات سعادة، لحظات ستبقى عالقة في ذاكرتها طويلاً.

عندما وصلا إلى المحطة السفلى عبر القطار دغلاً كثيفاً، تحيط به زهور برية مختلفة الألوان، بيضاء وخضراء وقرمزية، إضافة إلى أشجار المطاط والصمغ، والسنط والوزال والصنوبر التي تشكل أساس الغابة التي يحسبها الرائي سجادة خضراء واسعة.

ترجلا من المركبة ومددا أطرافهما.. فلاحظا منجماً مهجوراً عرباته صدئة وخطوطها القديمة.

قال لها غرانت:

- كان المسافرون الأوائل على هذا القطار من المستكشفين الذين اكتشفوا هذا المنجم صدفة، وحين أدركوا أن المكان قد يصبح صناعياً أقاموا المحطة العليا التي أصبحت تعمل يومين في الأسبوع فقط لحمل عشرة ركاب. وحين أقفل المنجم اشترت الحكومة المكان وحولته إلى مكان سياحي.

ركبا عربة المنجم الخشبية، ومع أنها لم تكن واثقة من سلامتها إلا أن وجود غرانت معها طمأنها وأثر فيها.. ولو طلب منها أن يجتازا الدغل سيراً لفعلت وهي مستعدة للحاق به إلى آخر العالم.

عندما عادا إلى السيارة، اصطحبها إلى مطعم قريب هو لفندق كبير. وتمتم لها حين قعدت على مقربة منه:

ـ ما أبهاك.

استغربت تعليقه فقد أمضى النهار كله دون أن يعلق بكلمة على مظهرها. كان الطعام ممتازاً لكنها عجزت عن التمتع به، فتفكيرها كان منصباً على غرانت فقط، الجو الحميم في المطعم أنساها الرحلة لكنه لم ينسها وجوده.

عرفت أنه منجذب إليها لكنه يخشى أن تشعر بما يكنه. فهو يحسبها لطيفة معه شفقة به. مع ذلك فقد كان هناك ما هو متباعد قليلاً بينهما لم يكن موجوداً من قبل. شيء محسوس لم يستطع أي منهما تجاهله.. شيء لن تتمكن من القضاء عليه الآن لكن الوقت كفيل به.

وما عليها الآن إلا الحذر من القيام بأي أمر قد يثيره أو يفسد ما بينهما فقد تتطور علاقتهما تدريجياً بحيث لن يعود بمقدور أحد تدمير هذه العلاقة التي تريد أن تبنيها على الثقة الكاملة لتدوم إلى الأبد. لكن هل تدوم؟ إنها تخشى بعد أن نما حبها ألا تتمكن من إخفائه.

أحست بالراحة عندما أنهى طعامه إلا أنها في الوقت نفسه لم تكن ترغب في أن تنتهي هذه اللحظات الثمينة. لكن، أمامهما بعد اليوم كله، وهي تنوي الاستفادة منه كل الاستفادة.

كان صديق غرانت يعيش في وسط البلدة التي كانا فيها، وذلك

في منزل رائع. أما صديقه هايمش غانتري، فكان رجلاً عريضاً شورد الوجنتين، ذا جسد أشبه بجسد الثور وذا صوت مرتفع أجش، كانت اليد التي شدت على يد ماندي أشبه بالملزمة وقد كادت تهشم عظام يدها.

ـ إن أصدقاء غرانت أصدقائي.

فردت وهي تفرك يدها:

ـ لست صديقته بالضبط. أنا مديرة منزله وسكرتيرته في آن واحد.

التوى فم هايمش بشكل مستساغ:

ـ أنت محظوظ غرانت! أين وجدتها؟ انكليزية أيضاً! ماذا حدث لتلك المرأة.. كيلي؟ لقد أقسمت ألا تستبدلها بامرأة أخرى في المنزل، هل غيرت رأيك؟ لا ألومك... فهذه امرأة رائعة حقاً!

ودون أن ينتظر رداً قادهما إلى خلف منزله حيث كان هناك غرفة حديقة.. وهذه هي الكلمة الوحيدة التي وجدتها لتصف المكان بها. كانت مليئة بالنباتات، والأثاث المعدني. بينما كانوا يتنشقون الهواء العليل متمتعين، أتت مديرة منزل هايمش التي لم تستطع ماندي تقدير عمرها حاملة صينية عليها مشروبات مثلجة.

قال هايمش:

ـ كيف تأكلون الطعام في المطعم؟ إن هذا غير لائق، ترى أكنت تريد الاستئثار بسيدتك الجميلة؟ أهذا هو الأمر.. هه؟

احمرّت ماندي خجلاً، فهايمش يظهرها وكأنها من أملاك غرانت الخاصة. لكن لو عرف السبب لبطل العجب.

تحدث الرجلان بعض الوقت عن الأعمال فهايمش يدير مزرعة للجياد.

أخيراً قال هايمش مفكراً:

- أتعلم بمن تذكرني هذه الحسناء يا غرانت.. بذلك الشاب الذي كان يعمل لديك.. ذلك الذي انقلب شريراً.

نظرت ماندي قلقة إلى غرانت وقد أحست بالمرارة.. فمن حق غرانت أن يحمله اللوم على ما فعل. وسأله غرانت ببرود:

- رايان شيلتون؟ أتظن هذا؟

هز هايمش كتفيه:

- قد أكون مخطئاً.. لقد شاهدت ذلك الشاب الشرير منذ مدة.. أتعرف هذا؟ لقد أصبح سائق شاحنة الآن. إنه جريء، فهو يعلم أن هناك من قد يتعرف إليه يوماً.

احتدت ملامح غرانت فجأة، وضاقت عيناه:

- أيقود شاحنته الخاصة؟ أم يعمل في شركة كبيرة؟

- لست أدري يا صديقي.. كان ينقل أخشاباً ضخمة. ولم يكن على الشاحنة اسم معين.

- لماذا لم توقفه؟ أنت تعلم أنني أفتش عنه!

ضحك هايمش:

- قد أكون رجلاً ضخماً.. لكنني لست سوبرمان.. وما من طريقة لأوقف بها شاحنة. ولو وقفت في منتصف الشارع، لداسني حالما تعرف إليّ.

هز غرانت رأسه باستسلام:

- أنت على حق طبعاً، لكن أخبرني عندما تراه ثانية.. فهناك ما أود تسويته مع ذلك الشاب.

وكانت ماندي ممتنة لأن غرانت لم يذكر قرابتها لرايان أمام هايمش الذي لا بد أن يعرف يوماً ويتساءل، ترى أشكّ والداها في أن مكروهاً أصابه؟ أكانا سيسافران إلى هنا كما كانا يقولان؟

وسمعت هايمش يقول قاطعاً أفكارها:

- ما زلت أظنها تشبه رايان. وربما تكون صدفة، ألا تظن هذا؟ ربما من الأفضل أن تحذر منها.

وضحك.. إنه يقصد المزاح، لكنها أحست بالإهانة ونظرت إلى هايمش بغضب. وقبل أن تتكلم قال غرانت:

- ماندي فتاة حساسة هايمش.. لا يجب أن تقول أشياء كهذه عنها، لقد أغضبتها.

تغيرت تعابير وجه هايمش:

- لم أعنِ هذا يا فتاتي.. ولن أرغب في إيلامك ولو مقابل الدنيا كلها. كما أنني أحترم رأي غرانت وحكمه. وما كان سيوظفك لولا أمانتك وصدقك. لقد درساً لا يُنسى من رايان شيلتون. ومن المؤسف ألا يكون ذلك الشاب قد حافظ على ثقة غرانت به.

بقيت ماندي صامتة بصعوبة، لكنها لن تتخلى عن الدفاع عن رايان ولو كان مخطئاً.. إنه كل عائلتها، والرابط العائلي يعني لها أكثر من أي شيء.

لم تتفوه بكلمة إلا بعد أن انطلقا في طريق العودة... فتحينت الفرصة لتشكر غرانت:

- أشكرك لأنك لم تخبر هايمش أنني شقيقة رايان.

- هذا أقل الواجب. أعلم أنك عادة تركيبين أعلى ما في خيلك للدفاع عن أخيك الذي لا جدوى منه. ولم أكن أرغب في أن أجرّ هايمش إلى خلافاتنا. لكن سرتني معرفة أنه في المنطقة.. فسألقاه، أنا على ثقة من ذلك وعندها سأوقع به انتقامي.

ردت بغضب:

- أتصور يداك الكبيرتين تحيطان عنقه، لتمنعا عنه التنفس حتى تنعدم منه الحياة. هل ستتمتع بفعلتك؟

- إن هذا خير عقاب أوقعه به.

ظهرت الكراهية على وجهها، وأحست بأن قلبها ينزف:

- حين تتكلم هكذا غرانت، أفقد إعجابي بك.

رد بحدة:

- وهل أعجبتك يوماً؟ لا تصعبي الأمور على نفسك بجرّ ذكر رايان إلى الحديث في كل مرة.

- أنا لم أذكره بل صديقك فعل. في تلك اللحظة كان آخر ما أود سماعه هو اسمه!

- آخر ما تودين سماعه؟ وهل تخليت عن فكرة التفتيش عنه؟

- تعرف تماماً ما أعنيه.. وأنا أنذرك فلو وضعت اصبعاً على أخي لجعلت الشرطة تلقي القبض عليك قبل أن يرف لك جفن! لا أحاول الدفاع عنه، لكن عقابه لم يوكل إليك تنفيذه.

وبدت الرحلة وكأن لا نهاية لها.. فقد تكهرب الجو بينهما، وخافت أن تتكلم لئلا يحدث شجار حقيقي بينهما.. ولم يحاول غرانت كذلك التفوه بكلمة.

لن تتوانى الآن، بعد أن أصبح لديها بعض أوقات الفراغ، عن قضاء يوم كامل في أوكلاند. فاليري وحدها قادرة على مساعدتها. ستزورها ثانية ولن تتراجع قبل أن تحصل على عنوانه، ولها الحق في هذا. تساءلت لماذا تخاف فاليري على رايان؟ هل هددها يوماً؟ ترى كيف أصبحت أخلاقه؟

أخيراً.. أدركت أن الغضب من غرانت لن يوصلها إلى أي مكان.. فإن غضب منع عنها الذهاب إلى أوكلاند وأبقاها سجينة كما كانت قبلاً. لذا من الخير لها البقاء في الجانب الصحيح معه.

فما كان منها عندئذ إلا أن أجبرت نفسها على الابتسام بدل العبوس.. وقالت:

- آسفة.. ما كان يجب أن أكلمك بهذه الطريقة، أعرف ما تشعر به تجاه رايان، وأفهم سبب مرارتك هذه.. وأظنني لو كنت مكانك لشعرت بشعورك هذا.. لكن يجب أن تفهم أنه أخي الوحيد وأنني لم أقصد بلادك إلا بحثاً عنه، عذراً على ما تفوهت به.

نظرت إليه دهشة وهو يوقف السيارة جانباً ويلتفت إليها وعلى وجهه ريبة:

- ليت اعتذارك صادق.

- ولماذا تظنني غير صادقة؟

- لأنك سرعان ما تمتعضين ما ان يذكر اسمه بسوء. وتسرعين إلى الدفاع عنه، فكيف تتراجعين الآن؟

- أنا لم أتراجع عن الدفاع عنه.. لكنني شعرت بأنني مدينة لك باعتذار علمت أنك لن تقبله.

فجأة زالت العداوة عن أساريره. وتصاعدت البسمة بطيئة إلى وجهه ملطفة قسماته الغاضبة.

- أصدقك ماندي.. يجب أن أغضب من ذلك الأبله هايمش لإفساده يومنا الرائع.

- أتظنه يوماً رائعاً؟

ضحك:

- إنه أروع يوم أمضيناه معاً.

إنه اعتراف مثير للاهتمام! فليس من عادته قول شيء كهذا.

- إذن.. عدنا صديقين كما كنا؟

هز رأسه وكأنه ضائع:

- إنك تسيطرين علي بطريقة ما يا ماندي... والله يعلم ماذا فيك ليؤثر فيّ إلى هذا الحد. معك أنسى نفسي. أنت الشخص

الوحيد الذي بت أستريح إليه. مع أنني أجهل السبب فأنت شخصية رايان، لن أفهم. وما كنت لأعتقد أنني سأرتاح مع أنثى ثانية.

تصاعدت خفقات قلبها وعلا صداها وضج في رأسها، وأحست بجفاف في فمها، فنظرت إليه وشفتاها منفرجتان، وأنفاسها تتسارع وهمست:

- ما أسعدني!

وكان هذا كل ما استطاعت قوله، لأن غرانت تأوه واحتضنها وقال متمتماً وفمه فوق شعرها:

- اووه.. ماندي.. ماندي.

بعثت عذوبة عناقه الدم حاراً في شرايينها فرفعت جسدها لتلتصق به، ثم التفت يداها خلف عنقه، في تلك اللحظة ما عادت تعي شيئاً إلا هذا الرجل الذي يسلبها عقلها ويجعلها مجنونة. وجاشت الرغبة في نفسها، وغنّت في عروقها وأدارت لها رأسها. وخفق قلبها بوحشية وألم، وسمعت موسيقى صاخبة لا نغمة لها في أذنيها.

تمنت لو أنهما في البيت بدلاً من السيارة الواقفة جانباً على الطريق العام حيث السيارات تمر بهما، فيرى ركابها العرض المجاني الذي يقدمانه. لكنها لم تكد تلاحظ، بل لو كانت في غرفة محتشدة بالناس لما اكترثت.

ونسي غرانت ما دمغ به نفسه من أنه رجل غير مرغوب. فقد أخبرها عنف عناقه أنه تحت خطر إطلاق العنان لعواطف كبتها منذ سنتين. ولو لم يكونا في مكان عام لتجاوز العناق بكثير. لكنه أخيراً ابتعد عنها وأحاطت يداه وجهها:

- آسف.. لكنني كنت مضطر إلى معانقتك. فأنا بأمس الحاجة إليك ماندي.. أحتاجك بيأس.

وجدت ماندي صعوبة في الكلام، كان فمها جافاً، مرتجفاً بوضعها في حالة غريبة لم يسبق أن مرت بمثلها قط.

قالت مقطوعة النفس:

- لا تعتذر.. فهذا ما أردته أنا كذلك يا غرانت.. إنه نهاية جميلة ليوم جميل.

- لم ينته بعد.. أريد المزيد.. والمزيد.. أريدك أريدك... ماذا تفعلين بي بحق الله؟

دفنت رأسها في صدره، وعقدت ذراعيها حول عنقه، دون أن تتكلم. فلا حاجة إلى الكلام ما دامت حركاتها تغني عن هذا.

دفعها عنه بلطف شديد إلى مقعدها، ومرر يديه المرتجفتين في شعره ثم سحب عدة أنفاس عميقة قبل أن يشغّل محرك السيارة وينطلق بها إلى الطريق.

لم تقوَ على الصبر حتى يصلا إلى المزرعة، كانت تعلم أنه سيكمل ما بدأه، لكن في هذه المرة ما من حواجز أو عراقيل. سيكونان في خلوة تامة و.. وما عادت تستطيع التفكير في أبعد من هذا...

اوه غرانت.. أرجوك.. أرجوك.. أنا أحبك وأريدك، لكن لا تفسد الأمور عليّ...

بدا وكأن لا نهاية لهذه الرحلة لكنهما وصلا أخيراً. انعطف إلى الطريق الترابية المفضية إلى المنزل، وتسارعت دقات قلبها مضاعفة بطريقة ما توقعتها أبداً.. كان كل نبض فيها وكل عصب يقفز ويزغرد ومالت نحوه باندفاع طائش وعانقته.

أمسك وجهها بيده وقبّل عينيها، ثم التفت إلى قيادته وأوقف السيارة في الفناء الخلفي. لكن ماندي صدمت صدمة كبرى فقد رأت سيارة غريبة مركونة هناك، ما من أحد يزور المزرعة دون

دعوة، إن آخر ما تريده زائراً في مثل هذا الوقت. شعرت وكأن غرانت شعر بالإحساس ذاته.

بعد التحديق بالسيارة الفخمة عدة لحظات التفتت متسائلة عما إذا كان لديه فكرة عن هوية الزائر. كان التبدل الذي طرأ على وجهه دراماتياً لم تتوقعه.. فقد شحب وجهه كالأموات، وابيضت شفتاه الرقيقتان.. وتلاشى ذلك الرجل الذي أثارها منذ لحظات بوعود لم يتفوه بها.

لمست ذراعه متسائلة بهمس:

- ما الخطب غرانت؟

نظر إليها فصدمتها الأشباح المعلقة في عينيه، فعلمت أن هذا الزائر كائناً من يكون مرفوض هنا.

* * *

٧ ـ عودة الغائب

صاح غرانت بصوت أجش غاضب:

- إنها فاليري! تباً لها، ماذا تريد؟ أنا لم أرها منذ رحيلها ولا أريد رؤيتها.

كان يرتجف بشكل ظاهر، فلعنت ماندي بصمت المرأة الأخرى على ظهورها المفاجيء، وسألته بلطف وهي تود لو تلمسه، لكنها خشيت رفضه:

- وكيف عرفت أنها هي، قلت إنك لم ترها منذ سنتين. كيف تعرف أن هذه سيارتها؟

نظر إليها بحدة:

- رأيتها يوم اصطحبتك إلى شقتها.. إنها لها دون شك، لكن لماذا جاءت اليوم، هذا ما أريد معرفته؟ لكنني أرفض رؤيتها!

لم يتحرك من مكانه خلف مقود السيارة، على الرغم من مضي دقيقة كاملة عليهما هناك، لم تكن ماندي تريد أن يراها كذلك، لكن، ليس بإمكانهما تشغيل السيارة والابتعاد.. ففاليري دون شك شاهدتهما يصلان من خلال إحدى النوافذ وهي تتساءل الآن عما يؤخرهما...

قالت ماندي مترددة:

- ربما تحمل إليك عملاً؟ أو ربما أتت تراني لتخبرني شيئاً عن

رايان ومكانه.

لم تستطع كيح إثارتها المفاجئة، فقفزت من السيارة دون أن تنتظر غرانت، وقد طار من رأسها كل ما كانا مقدمين عليه. هرعت إلى المنزل، فوجدت ڤاليري في غرفة الجلوس المريحة مستريحة، منتعشة وأنيقة.

نظرت ڤاليري ببرود إلى ماندي بشموخ:

- أين كنتما بحق الله؟ لقد انتظرت ساعات!

كانت ماندي ما تزال مبتهجة من جرّاء عناق غرانت. وقشلت طباع هذه المرأة المتعجرفة في التأثير على معنوياتها.. هذا عدا عن الإثارة التي لفحت نفسها انتظاراً لخبر ما عن رايان! فأجابتها بهدوء:

- كان يجب أن تعلمينا مسبقاً بقدومك، هل جئت بخصوص رايان؟ أهو مستعد لرؤيتي؟ أمعك عنوانه؟

رفعت ڤاليري رأسها بخيلاء وعيناها باردتان غير مكترثتين، وقالت بتعجرف:

- لم أقطع هذه المسافة كلها لأعطيك رسالة، أريد رؤية غرانت. أين هو؟

التفتت ماندي وراءها، فلاحظت أنه لم يلحق بها إلى داخل المنزل، وتنحنحت تحس بضيق في حنجرتها:

- إنه قادم.

لماذا تود رؤيته بعد هذا الوقت الطويل؟ قفزت هذه الفكرة إلى رأسها، لكن ابتسامة الرضى التي شاهدتها على شفتي المرأة أكدت وساوسها:

- فكرت كثيراً فيه منذ ذلك اليوم الذي زرتني فيه، فربما أنت على حق وربما تسرعت في القرار لذلك عدت لأرى بنفسي الأذى

الذي سببه أخوك لوجهه.

أحست ماندي بأن كل ذرة سعادة اعتملت في نفسها اليوم تتلاشى. فمع أن غرانت كان يقول دائماً إنه يكره هذه المرأة التي تخلت عنه، إلا أنه كان يحبها مرة وقد طلبها للزواج... ولا سبب يحول إطلاقاً من الوقوع في حبائلها من جديد، خاصة بعد أن تثبت أن لا أساس لمخاوفها، وأن جروحه لا تهمها.

أحست بالدمار وهي تنظر إلى ڤاليري، كانت عيناها الخضراوان متسعتين وفمها فاغراً، فسألتها ڤاليري بسخرية لئيمة:

- أصدمتك؟ أظنك لم تتوقعي هذا... لقد كنت تلعبين لعبة معه. لست دهشة.. فهو رجل جذاب، هذا على الأقل ما كان عليه قبل أن يشوهه أخوك. أعترف أنني لا أستطيع الانتظار حتى أراه حالياً.

ردت بقناعة لا تشعر بها:

- إنه يرفض رؤيتك. وأظن أن ما فعلته مقرف! بل أظنك وقحة في مجيئك إلى هنا.. ولن تصلي إليه. لقد انتهى أمرك حين هجرته، ولو كنت مكانك لرحلت قبل أن يفرم لحمك.

لمعت عينا ڤاليري بخشونة:

- اسمعوا من يتكلم..! لا يحق لك التفوه بكلمة بعدما ارتكبه أخوك بحقه.

- وهل الأمر بيدي؟ لا يقع اللوم على كاهلي أبداً.

- أشك في أن لغرانت هذا الرأي، أو نسيت أنني أعرفه خير معرفة. لا ريب ولا شك في أنه يعتقد أن أي فرد من أفراد عائلتكم يشبه الآخر.

كان هذا صحيحاً، في ما مضى. أما الآن فقد تغير معها. وهناك علاقة بينهما قد تكون رائعة إن لم تفسدها هذه المرأة

الكريهة! وتابعت الشقراء بوقاحة:

- الله أعلم بما فعلت به من جهتك.. لكن لا تبني آمالك عالياً... فما دمت هنا، لن ينظر غرانت إلا لي وحدي.

تناهت في هذه اللحظة إلى مسمعي ماندي حركة وراءها؛ فعلمت أن غرانت دخل الغرفة، لكنها ركزت نظرها على ڤاليري خائفة من النظر إليه.

كانت المرأة أبرع في التمثيل مما تصورت ماندي. لم تبد أقلّ انزعاج من جرحه إلا بحركة لعضلة واحدة في وجهها لم تلحظها سوى ماندي. لكنها سرعان ما غطت البسمة وجهها، وتقدمت نحوه، ولم تتوقف إلا بعد أن قال بخشونة:

- ڤاليري! ماذا تفعلين هنا؟

عرفت ماندي أن من واجبها تركهما وحدهما، لكن قدماها كانتا مسمرتين. راقبت المنظر أمام عينيها وكأنه تمثيلية فوق المسرح.

- غرانت حبيبي.. لم أستطع الابتعاد عنك أكثر.. كنت قاسية شريرة. أعلم هذا... لكنني ثبت إلى رشدي أخيراً.

جعلت لهجة ڤاليري الزائفة ماندي تحس بالغثيان. فقد كانت تلك الخبيثة تتكلم ونغمة اليأس والعذاب في صوتها... وأصبح وجه غرانت جامداً خالياً من الأحاسيس:

- أي جنتني لتري ما أبدو عليه الآن؟ حسناً.. هنا أنا أمامك، أمعني النظر.

وأدار خده المجروح إليها، فضحكت عالياً، ولم يظهر على وجهها إلا صدمة بسيطة.

- لكنني أعرف تماماً ما تبدو عليه حبيبي... لقد أخبرتني ماندي التي هي في الواقع سبب وجودي هنا اليوم. وأعتقد أن علينا

شكرها. لقد جعلتني أدرك أنني كنت أنانية.. حبيبي ألا تغفر لي؟...

وتقدمت خطوتان.

يا رباه! كيف لهذه المرأة هذا الفجور كله؟ ليت غرانت يرى تمثيلها. فلو أظهر أدنى ضعف لعجزت عن تحمله.

التفت غرانت إلى ماندي التي تمكنت من رسم ابتسامة شاحبة على فمها، لم تشاهد في حياتها مثل هذه النظرة السقيمة على وجه رجل من قبل. ترى في ما يفكر؟ أيفكر في أن يمنح ڤاليري فرصة أخرى، أم استطاعت تلك المرأة فعلاً تدمير كل الفرص الممكنة يوم تخلت عنه في المستشفى؟

سمعته يقول بقوة:

- لا أعتقد أن ماندي قصدت أن تجعلك تحسين بذنبك. إنها فتاة صريحة، وإذا قالت لك ما تظنه بك، فهي إذن كانت تحاول حمايتي أنا.. منك.

فجأة ما عادت ڤاليري واثقة من نفسها فالتفتت إلى ماندي، تنظر إليها نظرة ملؤها الحقد حتى ذعرت ماندي لكن ما هي إلا لحظة حتى سيطرت ڤاليري على نفسها، فنظرت إليه بابتسامة جميلة مفتعلة مقصودة.

- كائناً ما كان خلف كلمات ماندي يا غرانت.. فقد ردني إلى صوابي.. كنت حمقاء.. وأنا أرى الآن أنك لست مشوهاً كما اعتقدت.

نظرت ثانية إلى ماندي فغرانت وأردفت:

- ربما.. حبيبي.. قد نتكلم في هذا الموضوع على حدة؟

ابتلعت ماندي لعابها بصعوبة، وارتدت على عقبيها تغادر الغرفة وتحس بثقل في قدميها.. لكن ما ان أصبحت على مقربة

من غرانت حتى أمسك بها:

- إن ما قد يقال بيننا يا ڤاليري، يمكن لماندي سماعه، لقد أصبحت صديقتي.

لوت المرأة شفتيها المطليتين بلون قرمزي:

- هكذا إذن... أيعني هذا أن لا أمل أمامنا لاسترجاع علاقتنا.

رد ببرود:

- بل يعني أنك امرأة غير مرغوب فيك في هذا المنزل. لقد أقسمت حين تخليت عني ألا أعيدك ثانية. وكنت يومذاك أعني ما أقول وما زال قراري هو هو.

كان ما يزال يمسك بذراع ماندي. أصابعه تضغط على لحمها دون رحمة. أرادت أن تصرخ، لكنها صرّت على أسنانها، وقالت:

- أرى غرانت، أن من الأجدى الاختلاء بها قليلاً.

أمسك بوجهها بين يديه ينظر إلى أعماق عينيها:

- قد تكونين على حق، ثمة ما نحتاج إلى توضيحه. لكن لا تنسي أن بيننا عملاً لم ينته بعد.

وابتسم لها ابتسامة كانت الأولى منذ وصولهما إلى المنزل، فهمست:

- سأكون بالانتظار.

وخرجت من الغرفة على مضض، وأغلقت الباب خلفها بهدوء، أرادت أن تصفق الباب في وجه ڤاليري وأن تصرخ بها، وأن تطلب منها المغادرة فوراً. لكن غرانت بدا واثقاً من نفسه حين قال إنه سيراها فيما بعد. وهي واثقة من أن ڤاليري لن تجعله يغير رأيه.

بدا لها أن دهراً قد مرّ قبل أن ترحل ڤاليري... لكن غرانت

لم يأت ليراها بعد أن غادرت. لم تدرك أنها اعتمدت على كلامه كل الاعتماد حتى هذه اللحظة، إنها تفهم أنه بحاجة إلى فرصة لالتقاط أنفاسه، لكن...؟

اغتسلت، وارتدت فستاناً قطنياً خفيفاً وردي اللون، ثم تركت غرفتها تبحث عن غرانت، فإن لم يسعَ إليها، فستسعى إليه.

وجدته في مكتبته، يجلس وراء الطاولة في المكان الذي كان به حين التقته للمرة الأولى. ما إن طالعها وجهه حتى هبطت روحها المعنوية إلى الحضيض فقد عرفت أنه لن يحدث بينهما شيء ذلك اليوم.

إنه لم يرفع رأسه إليها حين دخلت، بل كان يحدق ساهماً في الطاولة، بل لم يدرك وجودها إلا بعد أن لفظت اسمه، وسألته:

- كيف سارت الأمور؟

انطفأ من عينيه اللامعتين عادة كل بريق، حتى صعب عليها أن تصدق أنها رأت فيهما منذ أقل من ساعة بريق الرغبة والحب.

- تريد ڤاليري أن تكمل علاقتنا من حيث توقفنا.

غاص قلبها إلى أعمق الأغوار وهي ترى آثار الاستسلام على وجهه:

- وماذا قلت لها؟

إن مستقبلها كله متعلق برده الآن، فابتلع ريقه بينما راحت هي تراقب حنجرته تصعد وتهبط، فلاحظت التوتر على يديه وهو يمسك بذراعي المقعد:

- وافقت على التجربة.

لم تصدق ماندي ما سمعته لكنها أحسّت بألم حاد في حنجرتها:

- لماذا؟ بالله عليك لماذا؟ أترضى بعدما فعلته بك؟

- قالت إنها أخطأت، وإنها أرادت دوماً أن تأتي لتراني لكنها كانت تخشى ردة فعلي.

- وصدقتها؟ ألم تلاحظ أنها لم تظهر على المسرح قبل أن أظهر أنا. هل أنت على يقين من أن الغيرة ليست السبب؟ ألا تعتقدها ترفض أن يكون في حياتك امرأة أخرى؟ تكون غبياً إن تركتها تقنعك!

دفع نفسه ليقف ثم دنا منها وأمسك كتفيها بقسوة:

- أنت لا تفهمين ماندي.. أعرف ڤاليري منذ مدة طويلة و...

انسلّت منه غاضبة يائسة:

- أفهمك جيداً غرانت.. يا الهي.. لقد كدت تنالني! وها أنا أرى أنك لم تكن تريدني أنا... بل امرأة... أية امرأة... وانك كنت طوال الوقت تحن لڤاليري، التي ما تزال تمسك خيوط قلبك بيديها... وما كان عليها إلا أن تفرقع بأصابعها حتى تركض إليها!

أنت تبعث الاشمئزاز في نفسي.

- ماندي.. أرجوك! أرجوك حاولي أن تفهمي!

- أفهم ماذا؟ أفهم أنك سعيد بانتهاء أيام الانتظار؟ لقد كانت السنتان الماضيتان جحيماً لك. كنت بانتظار أن تثوب إلى رشدها؟ ما دامت لم تغب عن بالك فلماذا لم تسعَ إليها؟ أجبني عن هذا..

هز رأسه ببطء وجبينه متغضن ألماً.

- ليس الأمر كما تصفين.

نظرت إليه ببرود وهي تنزف من الداخل:

- إذا كنت تحبها إلى هذا الحد فلترع منزلك ولتقم بأعمالك المكتبية اللعينة لأنني ذاهبة.. فلن أبقى هنا بعد أن استغفلتني!

بدا الغضب على وجهه:

- أظنك نسيت العقد الذي وقعته، عليك البقاء سنة كاملة، اثني عشر شهراً لا تقل يوماً.

لم تصدق.. إنه مجنون! صاحت به:

- أيها النذل! كيف تجرؤ على أن تفعل بي هذا؟ إذا كنت تحسبني باقية حتى أرى تودد تلك الفاجرة الصغيرة الرديئة، فأنت مخطىء... أنا راحلة الآن. وما من طريقة لإيقافي!

وخزت الدموع عينيها فأسرعت تعدو لتخرج من الغرفة قبل أن تتدفق. لكن كان غرانت كالعادة أسرع منها، فأمسكت يداه كتفيها، وأدارها لتنظر إليه.. ففتحت فمها لتحتج، لكنها وجدت وجهها بين يديه يرفعه نحوه.. كانت تريد أن يعانقها لكن ليس هكذا، وليس لهذا السبب، فركلته على ساقيه وضربت صدره بقبضتيها.. لكن دون جدوى.

كان يعانقها بقسوة وكأنه يعاقبها على ما تفوهت به... لكنه كان في الوقت ذاته يحرك في داخلها رغبة مؤلمة. راح صدرها يعلو ويهبط في محاولة منها للسيطرة على ذاتها.. تكرهه وتحبه في آن واحد... تريده وترفضه في الوقت نفسه. كانت مقاومته أصعب ما تفعله.. لكن يجب أن تقاومه... لقد خسرته أمام ڤاليري، وكل ما يحاول فعله الآن هو إنقاذ ماء وجهه.

حين رأت أنه لن يدعها وشأنها مهما كانت الظروف، قررت أن تضربه على أخطر موضع. لكنها رفضت الفكرة أمام الخضوع له بهدوء، فهذه طريقة فيها أنوثة، وقد تخرجها من ورطتها هذه بكرامة... لكن بقاءها مستسلمة بجمود وبرود وكأنها تمثال حجري، جعل نبضاتها على شفير الانفجار وقلبها على حافة التحطم فوق عظام صدرها.. لكنها خسرته قبل أن تفوز به حقاً. وعلاقتهما كانت أقصر عمراً من أي شيء آخر في الدنيا.

ما إن شعر بمقاومتها تتلاشى حتى تركها، قائلاً:

- عديني أن تبقي هنا، التزاماً بشروط عقدك.

بدا لها وكأنه يعاني من آلام مبرحة، وكرهته لأنه سمع لڤاليري بأن تسيطر على إرادته الضعيفة.

- وما هي خياراتي الأخرى؟

- لا شيء! لكنني سأبقيك هنا بالقوة لو اضطررت.

- ليتني لم أوقع ذلك العقد اللعين! ما اعتقدتني سأصل إلى هنا.. خلتني سأتمتع بالعمل، لكن إذا حسبت أنني سأتمتع برؤية ڤاليري معك فأنت مخطىء. إذا اقتربت هذه المرأة مني فسأنتزع عينيها.. ولا تخطئن بهذا أبداً!

ابتسم بخشونة، وكأنه يجد السعادة في كلماته الخشنة:

- لن تطأ هذا المنزل أبداً.

وهذا يعني أن يذهب هو إليها! كيف ستتمكن من تمضية الساعات الطويلة وحدها أثناء غيابه؟ راحت مخيلتها الخصبة منذ الآن تتصورهما معاً متعانقين يعوضان عما فاتهما. إنها أفكار تحطم القلب، لكن ما من شيء تستطيعه حيالها... فأخفضت رأسها وقالت:

- أعدك غرانت.. هل أستطيع الذهاب الآن؟

كان رأسها منخفضاً، كتفاها محدودبتين، ولو رفعت نظرها إليه لشاهدت العطف والحنان في عينيه، لكنها لم تكن تريد النظر إليه ثانية.. لقد حطم قلبها، ومع أنها تعرف بأن هذا أمر ستتخطاه مع الزمن إلا أن هذا لن يتم خلال وجودها القسري هنا.

قال لها وهي تسير نحو الممر مكسورة الخاطر:

- أنا آسف.. أنا حقاً آسف ماندي. صدقيني.. لو استطعت أن أغيّر مجرى الأمور بطريقة أخرى لفعلت.

لم تفهم ماندي ما يعنيه، كل ما عرفته أنها فقدت الرجل الوحيد الذي أحبته.

وكانت الأيام القليلة التالية، جحيماً لا يطاق.. عملت فيها أكثر مما مضى.. ليس لأن غرانت كان يجبرها، بل لأنها الطريقة الوحيدة لتلهي تفكيرها. كان يغيب معظم الوقت ليقضيه طبعاً مع ڤاليري التي لم تطأ قدماها المزرعة.

لم تعرف ماندي مثل هذا العذاب في حياتها فماذا تفعل والأشهر المتبقية أمامها طويلة طويلة. فكرت في حيلة للهرب. لكن شيئاً ما كان يمنعها دائماً.

وليس لأنها ملزمة بالعقد بل لأن صاحبه غرانت، فهي رغم ما ترى من اهتمامه بڤاليري لم تكف عن حبه، لم تستطع إقناع نفسها بالرحيل. وكان هذا عذاباً تنزله بنفسها، لكنها أحست بأنها تستحق العقاب على غبائها وعلى ما أوقعت نفسها فيه منذ البداية.

لا تنكر أنه لم يكن بينهما علاقة.. لكنهما كانا على قاب قوسين أو أدنى منها. وكانت واثقة بأنهما سيتورطان عاطفياً في أمد غير بعيد.

أخذ ماكس يتذمر بإصرار بشأن الطريقة التي تدفع بها نفسها.

- ستمرضين نفسك.. لماذا؟ كل من يراك يظن غرانت يسوقك بالسوط؟

نظرت إليه متعبة:

- ألم يخبرك بعودته إلى ڤاليري؟

هز العجوز رأسه:

- هو لا يقول شيئاً.. لكنني شاهدت ما يحدث بنفسي.. أرى أن عليه أن يفحص عقله. ألهذا السبب تجهدين نفسك بالعمل، لتخرجيه من قلبك وعقلك؟

هزت رأسها باضطراب:

- سارت الأمور على ما يرام حتى ظهرت هي. كم أكرهها!

- أعتقد أنها تبادلك الشعور ذاته، لا تشغلي نفسك بها. غرانت أذكى من أن يترك امرأة تسيطر عليه.

ردت وهي تعلم أنها غبية:

- الحب يفقد الإنسان اتزانه. الحب يقيد حكمتك، ولقد فقد غرانت حكمته أمام فاليري التي لم يتوقف عن حبها يوماً. أتوقع أن يعلن خبر خطوبتهما في وقت قريب.

وعندها ستذهب.. فلن تبقى لتراه ملتزماً بفاليري.. وحتى ذلك الوقت، هناك أمل ضئيل في أن تفشل علاقته بها مرة أخرى، واستمر ماكس يهز رأسه وعيناه الزرقاوان مضطربتان:

- إنه بحاجة لمن يكلمه بقسوة، لكن المشكلة أنه لا يصغي أبداً. حاولت مرة أن أشرح له نوعية تلك الفتاة وذلك قبل أن ترحل لكنه لم يصغ بل أصغى فقط إلى صوت قلبه. أنا لم أحب زوجتي إلا بعد أن تزوجنا.. وقد أصبحنا صديقين، لهما الاهتمامات نفسها.. لكن بعد أن عشنا معاً فترة طويلة، اكتشفنا أخطاء بعضنا بعضاً، ولا أستطيع القول إنني أحببتها حقاً... لكن علاقتنا توثقت مع الزمن وتعمقت أكثر من ذلك اللعين الذي يسمى الحب.

كانت هذه خطبة طويلة من ماكس، لكن ماندي عرفت مضامينها.. كان يحاول أن يقول لها إنها حمقاء لأنها تحب غرانت. ربما تزوج ماكس امرأته عن غير حب، لكن هذا لا يعني أنها قد تتوقف عن حب غرانت الذي تريد أن تمضي بقية حياتها معه. وهي على يقين من أن حبها لن يخبو أو يهن أبداً. وابتسمت:

- شكراً لك ماكس.. ليت كلامك يعينني.

- هوني عليك ماندي.. لا جدوى من كل هذا إن مرضت.. أبدى أحد العمال الذين استخدمهم غرانت مؤخراً إعجابه بك، وهو شاب وسيم، فلماذا لا تخرجين معه؟ أنت تستحقين بعض التسلية!

نظرت إليه بحزن:

- كيف لك أن تقترح أمراً كهذا؟ أنت تعرف مشاعري تجاه غرانت. ولا أريد الخروج مع أحد.

- لكن هذا سيفيدك، سأتحدث إلى الشاب. أتأذنين لي؟

- لا أرجوك. كيف أكون رفيقة رجل وقلبي منشغل بآخر.

لكن، خلال الغداء لاحظت نظرات مايك كيندل إليها، ولم تدهش حين تأخر عن الانصراف. كان شاباً جميل الطلعة وجهه مستدير مرح، وبسمته جميلة.

- ما رأيك بمرافقتي الليلة طلباً للتسلية؟ تقاضيت أجري اليوم.

نظرت إليه ببرود:

- قلت لماكس إنني لا أريد الخروج معك، ألم يبلغك الرسالة؟

- اوه، بلى.. لكن من عادة النساء أن يغيرن رأيهن.. فما رأيك؟ أنت بحاجة إلى بعض التسلية، لأنك تجهدين نفسك بالعمل.

- ربما يعجبني العمل. ألا تظن أن هذا هو السبب؟

- وأنا أحب العمل... لكنني أحب التسلية والمرح أيضاً، هيا ما الضرر في هذا؟ سأريك جانباً من المدينة لم تريه من قبل.

لكنه فسر صمتها قبولاً وتابع:

- سنذهب في السابعة، فكوني مستعدة.

واختفى قبل أن ترد عليه بكلمة. ابتسمت لنفسها.. ليس شاباً سيئاً، لذا لا ضرر من الخروج برفقته. هو خير من بقائها وحيدة

تعذب روحها بالتفكير في غرانت وڤاليري.

حضرت سلطة لعشاء ماكس وغرانت مع أنها تشك في عودته باكراً، فقد اعتاد على التأخر في العودة، وهي لم تكن تنام قبل عودته. وقد حدث أن غاب ليلة كاملة عن البيت فبقيت مستيقظة طوال الوقت تفكر كم ستصبر على هذا الوضع.

حين أطل مايك كيندل عليها في السابعة كانت جاهزة، ولأنها تصورت الأمكنة التي سيصطحبها إليها. ارتدت سروال جينز وقميصاً يمنع عنها الحر. وقد تأكدت مخاوفها فعلاً حين رأته يرتدي الجينز أيضاً.

- أنا مسرور لأنك غيرت رأيك. كنت أعرف هذا.. فهذه طبيعة النساء.

- ما هذا الكلام!

ضحك وهي تلحق به إلى سيارته.. لقد أعجبها هذا الشاب فهو مختلف عن غرانت وسيساعدها دون شك في التغلب على مشاكلها ساعة أو ساعتين.

اهتزّت سيارته طوال الطريق وكأنها على وشك السقوط قطعة قطعة... وسألها بفخر:

- ما رأيك بهزازة العظام هذه؟

ضحكت ماندي:

- لا يهم إن كانت تقلنا من مكان إلى آخر.

- ليتني أستطيع شراء سيارة كسيارة الرئيس الكبيرة أو كسيارته الصغيرة الرياضية التي طالما تخيلت نفسي أقودها.. لقد خرجت معه من قبل، أليس كذلك؟

- مرتين أو ثلاثة.

- أتعملين هنا منذ مدة؟

- منذ شهرين.

- أما أنا فمنذ أسبوعين، وأشك في أن يطول بي المقام. فأنا أحب السفر كثيراً، وأمل من البقاء في مكان واحد.. ما الذي جلبك إلى هنا؟ ألديك أقارب؟

إنه سؤال بريء تماماً. لكن ماندي انزعجت رغماً عنها:

- لدي أخي هنا.

- ولماذا لا تعيشين معه؟

- لقد انتقل إلى مكان آخر ولم أستطع اقتفاء أثره لأنني أحتاج إلى مال وهذا ما دعاني إلى قبول الوظيفة.

بدا الاهتمام على مايك:

- ما اسمه؟ أنا أقابل الكثير من الناس، وقد أعرفه.

- رايان شيلتون.

فكر قليلاً وهي مترقبة:

- آسف.. لكنني سأحفظ الاسم وإن حدث أن التقيته أخبره عن مكانك.

- لكنني أفضل أن تخبرني أنا بمكان وجوده، أود مفاجأته.

- أنت تحيرينني، فلست كالفتيات اللاتي أقابلهن ولا أراك إلا عاملة بجهد ممتنعة عن الخروج أبداً.

هزت كتفيها:

- لقد سبق أن قلت إنني لا أملك مالاً أو وسيلة نقل.

- اسمعيني، حين أترك العمل هنا سأترك لك سيارتي. فلدي خطط كبيرة لن أحتاج معها إلى سيارة قديمة.

ضحكت ماندي:

- قد أطالبك بتنفيذ وعدك.. هذا إذا بقيت سالمة.. فمن الرائع أن أخرج وحدي دون انتظار أن يقلني غرانت.

لكن فكرة امتلاك السيارة ما عادت مهمة لها. فسبب رغبتها في اقتنائها كان التفتيش عن رايان.. وفاليري وحدها تعرف مكانه، وهي لن تستطيع زيارتها ثانية بعد أن عاد إليها غرانت.

سألها فجأة:

ـ ما مدى صداقتكما؟ إنه يخرج كثيراً لوحده.. أبسبب فتاة؟

هزت كتفيها:

ـ أنا لا أتدخل في شؤونه الخاصة.

أنذرته لهجتها بطريقة ما فابتسم مغيراً الموضوع:

ـ حسناً.. سأقفل الموضوع، عمن ستتكلم.. عنك؟ أنت أجمل فتاة رأيتها... لماذا لم تتزوجي بعد؟

ابتسمت:

ـ ربما لأن أحداً لم يطلبني للزواج.

ـ هذا يعني أن أمامي فرصة؟

ـ لا أظن.. يجب أن تعرف أنني لا أهتم بالرجال أبداً.

ـ امرأة غريبة! لكنك لا يمكنك لوم شاب إن حاول. وأنا متأكد أنك لن تحاولي إفساد أمسيتي.

وضغط على دواسة السرعة فانطلقت السيارة بسرعة وتمايلت. انشغلت ماندي بالتمسك بأطراف مقعدها لئلا تقع.

تناولا العشاء في مطعم إيطالي يقع في وسط أوكلاند.. ثم انتقلا إلى مربع للرقص فيه أضواء لامعة وموسيقى صاخبة تجعل الحديث مستحيلاً. وبعد أن حاول أن يكلمها مرتين أو أكثر دون أن تستطيع سماعه أمسك بيدها وأخرجها من المكان ثم قال ضاحكاً:

ـ أظن هذا يكفي.. كنت أقول إن هذا الشاب الذي تعذبين نفسك من أجله لا يستحق عذابك هذا.. فاسدلي شعرك وانسي أمره. فلا فائدة من بقائك بائسة هكذا.

ـ وما أدراك أنه رجل؟

انزعجت حين علمت أن تعاستها واضحة.. وأجاب بمرح:

ـ حين تبدو امرأة مثلك تعسة، فالسبب دائماً رجل. وإذا كان لا يملك العقل الكافي لمعرفة تعلق امرأة جميلة به، فهو لا يستحق أن تكسري قلبك من أجله. هيا فلنتمش وصولاً إلى الملاهي المحاذية للنهر.

كانت تعرف أن في ذلك الشارع مرابع للهو وأماكن للعبث، وحانات رخيصة.. ولم تكن تحب الذهاب إليها.

لاحظ مايك ترددها فقال:

ـ هذا أمر حتمي.. لا يمكن زيارة المدينة دون مشاهدة ذلك الشارع. إن لم تفعلي كنت كالذي ذهب إلى باريس دون أن يشاهد برج ايفل.

أعجبتها المقارنة فضحكت، وسمحت له بأن يقودها إلى تلك البقعة المشبوهة السمعة. وتمسكت بذراعه حينما كانا يقتربان، وقال لها شارحاً:

ـ منذ سنوات.. كانت مركز الحياة البوهيمية في أوكلاند. لكنها اليوم أصبحت ذات وجهين، فهي في النهار، صدقي أو لا تصدقي، منطقة سكنية رصينة، ومركز تجاري.

قالت ماندي مبتسمة:

ـ وفي الليل تتغير تغيراً تاماً، أعتقدني أحب رؤيتها نهاراً.

تعلقت بذراعه أكثر وراحت تنظر إلى ما حولها. كانت أنوار النيون تشع في كل مكان حتى فوق غصون الأشجار وحاولت ماندي أن لا تنظر إلى البغايا اللواتي يرمشن بأهدابهن الاصطناعية إلى كل رجل ينظر إليهن. وكان هناك مجموعات من السواح مثلها مسلحين بالكاميرات.. وهناك شبان متحلقين قرب البركة يبدو

أنهم يتعاطون المخدرات أو يروجونها. هذا مكان ما حسبت نفسها يوماً تقصده خاصة في الليل. لكنها كانت تجربة. ومر بهما جماعات من الشبان يركبون دراجات نارية، وكان هناك مجموعات أخرى تتجمع عند الزوايا، ويبدو أن الجميع يجدون متعتهم في هذا المكان الشرير.

أدخلها إلى ناد ليلي بدا أقل بهرجة من غيره وجلسا يتأملان ما حولهما ويحتسيان المثلجات حتى أعلنت أنه قد حان وقت العودة إلى المزرعة. ولم تدرك أن الوقت متأخر حتى أصبحا داخل السيارة وما زاد الطين بلة أن عجلة ثقبت أثناء المسير فتوقف ليستبدلها بأخرى. لكن لِمَ تخشى غرانت؟ إنها حرة في تمضية أوقات فراغها كما يحلو لها ومع ذلك أملت الوصول إلى المنزل قبله وذلك لعلمها أنه سيغضب حين يعرف بأمر خروجها مع مايك.

أحست بالارتياح حين وصلا. لقد لاحظت أن سيارة غرانت غير موجودة، فشكرت مايك على هذه السهرة:

- لا تشكريني ماندي.. يجب أن نعيد الكرّة.

لم يكن قد مضى عليها في غرفتها إلا بضع دقائق حين سمعت سيارة غرانت تتوقف.. عادة كان يتوجه فوراً إلى السرير، لكنه الليلة فاجأها بطرقه بابها وبالدخول عليها بغير إذن. كان وجهه متوتراً غضباً، وذراعاه مسبلتين وقبضتاه مشدودتين وكأنه يجد صعوبة في إبعادهما عنها:

- أين كنت بحق الله؟

ردت بهدوء:

- خارجاً، وما شأنك أنت؟

- أحب أن أعرف أين كنت؟

- أنت رئيسي لا حارسي مما يعني أنني حرة في الخروج متى

أردت. فسأفعل.. والواقع أنني أمضيت ليلة سعيدة مع مايك كيندل.

- وهذا ما عرفته.. لقد أخبرني ماكس. عدت باكراً وكنت سأصطحبك بنفسي، لا يحق لك الخروج دون أن تعلميني به.

صاحت به:

- ليس حقي؟ بل حقي أن أفعل ما أريد.. ولماذا أردت اصطحابي.. هل تخلت ڤاليري عنك مجدداً؟

كانت رغم صراخها الغاضب عليه تتأوه داخلياً على فوات هذه الفرصة الذهبية! لكنها لن تعترف بأن هذا أزعجها.

رد بانزعاج:

- اتركي ڤاليري خارج الموضوع... أريد أن أعرف ماذا كنت تفعلين... كل شيء.. هل غازلك ذلك الشاب؟

لم تصدق ماندي ما تسمع:

- حقاً غرانت! أو تحسبني أعترف لك إن غازلني، لا؟ ما أفعله لي وقت فراغي هو شأني الخاص لا شأنك أبداً.

- لو وضع اصبعه عليك أقسم أن أحطم عظامه.

قفز قلبها ألماً، إنه يغار. لكن كيف وهي لا تعني له شيئاً؟ أثارها أن تراه هكذا، وقادها شيطانها إلى البعيد.

- أعرف معه على الأقل أين أضع قدمي.. فلا ادعاءات زائفة بيننا.

- وهل ستخرجين ثانية معه؟

- طلب مني إعادة الكرّة.

صاح بصوت حاد ترددت ذبذبته في أرجاء الغرفة:

- أمنعك.. أمنعك ماندي.. أتسمعين؟ هذا الرجل لا يستحقك. جاء إلى هنا يطلب وظيفة مؤقتة وهو سيرحل بعد

أسابيع.. ما هو إلا منتهز فرص... نطلق على أمثاله «الرُحّل» ليس لديهم براعات خاصة وينتقلون من مكان إلى آخر سعياً إلى العمل. إنه ليس من صنفك أبداً.

كان يتلفظ كل كلمة وقد أمسك بذراعيها يهزهما حتى أحست بالدوار. مع ذلك أجابت ببرود:

- لم أقل إنني أبحث عن علاقة دائمة، مايك مرح، لطيف، وتمتعت بصحبته.

سألها بغيظ:

- وتمتعت بعناقه؟

- وما شأنك أنت؟ أرجوك اتركني.. أنا متعبة.. أريد النوم.

- عجباً لأنك لم تدعه إلى فراشك.. لكن هذا من حسن حظه فلو وجدتكما معاً لـ...

فجأة ضمها إليه بقساوة ووحشية، صاباً جام غضبه عليها. كان عناقاً عنيفاً، لم تستطع معه المقاومة فقد كانت متعبة عاطفياً.. فخلال الأسبوع المنصرم لم تفكر في سواه، ومع أنه الآن معها غاضب إلا أن هذا خير من لا شيء. في هذه اللحظات نسيت ڤاليري ونسي مايك، وهذا ما كان يعني لها الكثير الكثير.

وكما أخذها فجأة، دفعها عنه فجأة فترنحت وكادت تقع على السرير. فنظرت إليه ساخطة تحاول إبراز غضب لم تكن تحسه:

- لِمَ فعلت هذا؟

- لماذا؟ قولي لي أنت لماذا خرجت مع مايك.

- لأنني سئمت البقاء وحيدة، أليس هذا بسبب كاف؟

أحنى رأسه:

- معك حق... لكن أكان يجب أن يكون هو؟

- ومن غيره؟ ماكس؟

- عديني ألا تخرجي معه ثانية.

في كلامه إلحاح لم تفهمه:

- لا أرى سبباً لأعدك، لكنني سأفعل إذا وعدتني أنت بعدم الخروج مع ڤاليري.

كانت خائفة وهي تتكلم من أن تنظر إليه ومع ذلك رفعت بصرها نحوه، وشاهدت الألم على وجهه وفي عينيه، ورد بصوت منخفض مشدود:

- أسف.. هذا مستحيل.

فصاحب به غاضباً:

- إذن، لا تحاول منعي من الخروج مع أصدقائي.. واخرج من غرفتي.. الآن!

وخلعت حذاءها لترميه به، فأمسك به بين يديه، ونظر إليه وكأنه يتساءل لماذا وجهت هذا الصاروخ إليه... وكأنه لا يستطيع فهم سبب عدائها، وعادت للصراخ:

- قلت اخرج من هنا!

وضع الحذاء أرضاً، ونظر إليها وكأنه يؤنبها، ثم فتح الباب ليخرج دون أن يقول كلمة واحدة.

جلست ماندي على حافة السرير دهراً قبل أن تجد القوة على خلع ثيابها. كانت تستحم عادة قبل النوم، أما الليلة فلم يكن لديها القوة أو الرغبة، فقد ساءتها خسارة فرصة الخروج معه، كما ساءها تصرفه غير المعقول معها.

أطلق مايك دعوة أخرى لها في اليوم التالي لكنها رفضت مدعية التعب... فوعدها بموعد آخر... وفي الأيام والليالي التالية تعذبت كثيراً، كانت تعرف أن غرانت يعرف كل تحركاتها. مع أنه لم يكن في المزرعة، لقد عرفت أنه كلف ماكس بمراقبتها

وقد لازمها العجوز دائماً.

- سمعت أن المعلم وبخك لخروجك مع مايك، أنا آسف لهذا، كانت غلطتي.

- لم تكن غلطتك.. لكن لا تقلقا.. لن أخرج مع أحد بعد.

ولم يسألها ماكس لماذا، لأنه يعرف مشاعرها نحو غرانت.

كانت تشعر مع مرور الأيام بالإحباط حتى قبلت أخيراً إحدى دعوات مايك المتكررة.

اصطحبها إلى مطعم يطوف على النهر، وحين عادا تركته، رغم علمها بأن هذا خطأ، يعانقها. لكنها لم تشعر بردة فعل وحين تراجع قالت:

- آسفة!

- انسي الأمر. هذا ما كنت أتوقعه منك، لكن بالله عليك حذار أن يتآكل قلبك بسبب رجل لا يهتم بك.. فهذا لن يفيدك.

ابتسمت له.. ثم توجهت إلى المداخل، ومنها إلى الممر المفضي إلى غرفتها.. تعجبت لدى رؤيتها خطاً من النور تحت بابها. إنه غرانت. خفق قلبها، لقد ضبطها ثانية!

لكنها سيدة نفسها، وهو من اختار إنهاء علاقتهما قبل أن تبدأ حتى. ولا يمكنه إملاء ما يجب أن تفعله أو لا تفعله فلا شأن له بها أبداً... أبداً.

قفزت الخطوتين الأخيرتين ودفعت الباب بقوة، غاضبة، بارقة العينين بوحشية... لكنها توقفت مسمرة شاحبة كالأموات...

لقد مضى زمن طويل طويل منذ أن رأت الرجل الواقف على بعد أقدام منها.. لقد تغير كثيراً... لكن ما من خطأ في ذلك الشعر الأحمر الكثيف الذي يشبه لون شعرها ولا خطأ في هاتين العينين الخضراوين. صاحت دون وعي:

- رايان!.. اووه.. رايان! أهذا أنت!

٨ ـ أهبك عمري

كان الارتماء بين ذراعي أخيها أمراً لم تتوقعه ماندي أبداً... ليس اليوم أقله. فجأة ذاب إحباط الأسابيع الأخيرة وأضحى فيضاناً من الدموع، كانت قد مضت عدة دقائق قبل أن تتمكن من الكلام.. وكان رايان يحضنها وكأنها ما زالت طفلة، طفلة بحاجة للحب والحنان والمؤاساة.

حين نظرت إليه أخيراً، ترفع وجهها لتنظر إلى عينيه، لاحظت أن ذاك الولد الذي رحل عن انكلترا منذ سنوات قد كبر. غمرتها مشاعرها، فهذا الرجل هو ما تبقى من عائلتها كلها. إنه يعني لها أكثر من أي شيء في العالم.

سألها صوت خفي في داخلها: أكثر من غرانت؟ في هذه اللحظات.. أجل.. أكثر بكثير من غرانت.. فلا فائدة من حب غرانت الذي سينتهي عقدها معه يوماً وتخرج من حياته إلى الأبد. لكن رايان.. رايان سيبقى لها دائماً.

قالت متهدجة الصوت يقطعه نشيجها:

- بدأت.. أيأس من رؤيتك ثانية. لماذا رفضت مقابلتي؟

رد متجهماً:

- ثمة ما هو بحاجة إلى تفسير. أما الآن فالمهم أنني معك. لكنني ما تصورت أن ماندي الصغيرة قد تأتي بحثاً عني.. حين سمعت أنك هنا، لم أصدق، كنت أذكرك فتاة صغيرة ذات ساقين نحيلتين ووجه

مليء بالنمش. لكنك أصبحت الآن امرأة جميلة! لم أفكر قط في أن أختي الصغيرة ستصبح هكذا...

ابتسمت له:

- لن تعرف أبداً ما تعني زيارتك هذه لي.

بدا نادماً، وتركها مبتعداً خطوات، ثم إستدار لينظر إليها، ووجهه مضطرب:

- لم أحضر إلى هنا بإرادتي ماندي.. لقد ارتكبت ما أخجل من ذكره، ولم أرغب في رؤيتك.. أحسست بأنك لا تستحقين وزر عاري.

صاحت به:

- أنا عائلتك، وما يصيبك يصيبني. يا إلهي رايان.. ألم تعرف هذا؟ أريد مساعدتك بأية وسيلة ممكنة.. أنا امرأة الآن، وما عدت غبية أو سخيفة كما كنت عندما تركت البيت. سأقف دائماً إلى جانبك، هذا ما يجب أن تعرفه يا رايان.

بقي يهز رأسه، وكأنه يخوض معركة داخلية ليبقيها خارج حياته أو كأنه ما زال لا يصدق أنها كبرت هكذا.

- هل أنت في إجازة هنا؟ أم جئت لتمهدي الطريق لوصول أمي وأبي؟ أعلم أنهما كانا يريدان العيش في هذا البلد بعد تقاعد أبي الذي أوشك على ما أعتقد على سن التقاعد... يا إلهي، كنت في غاية السعادة برؤيتك حتى نسيت أن أسألك عنهما.

أغمضت ماندي عينيها، وسحق الحزن قلبها.. لن تستطيع تذكرهما دون أن تعود إليها الطريقة التي ماتا فيها. وانفجرت يائسة، غير قادرة على تغليف النبأ المفجع بكلمات جميلة:

- أمي وأبي ماتا في.. حادث سيارة.

جف وجه رايان من اللون:

- اوه لا.. لا! أردت أن أراسلهما، لكنني كنت أخجل من نفسي.. كنت أنتظر حتى...

قاطعته:

- لم يتعذبا... ماتا على الفور.. لقد اصطدموا بشاحنة كان صاحبها قد فقد السيطرة عليها. ولم يكن أمام أبي فعل شيء.

انهار أخوها وقعد على حافة السرير، يدفن رأسه بين يديه، ووقفت ماندي بصمت تراقبه فهو بحاجة إلى بضع دقائق ليتماسك، لقد كانت الصدمة كبيرة.

أخيراً رفع رأسه إليها، وكاد قلبها يقفز نحوه حزناً على ما تراه من أسى على وجهه. قالت له:

- أنا آسفة، ما كان يجب أن أخبرك سريعاً، لكنني انتظرت طويلاً.. لقد جئت لهذا السبب! أردت إبلاغك شخصياً، لا كتابة، فلم يبق الآن إلا أنا وأنت رايان.

قعدت قربه فضمها إليه بقوة.. علمت من ارتجافه أن الصدمة كانت أقسى عليه وطأة مما كانت عليها.. فرغم امتناعه عن المراسلة إلا أنها لا تشك في حبه لأهله.

قال لها بصوت ضعيف:

- ليس هناك ما يقال يا صغيرتي ماندي.. لكنها صدمة.. لم أتوقعها... هل تألمتا كثيراً حين توقفت عن المراسلة؟

أطرقت برأسها، غير قادرة على الكلام.. فقد كانت تكره أن تراه منزعجاً، كان دائماً أخاها الأكبر القوي، المتأمر قليلاً، وما سمعته من غرانت أكد لها هذا. لكنها تعرف أن له قلباً رقيقاً.

استجمع بجهد فائق رباطة جأشه:

- لا أصدق أنك تعملين عند غرانت.. هذا آخر مكان توقعت أن أراك فيه.

ـ جئت بحثاً عنك.. كانت المزرعة الدليل الوحيد عليك بعدما فقدته في شقتك في اوكلاند.

ـ أوَ لم يطردك غرانت؟

ابتسمت:

ـ جرى بيننا شجار لا بأس به. أعترف بهذا.

ـ ثم عرض عليك الوظيفة.. كيف حصل هذا؟

ـ لم يكن عرضاً.. لقد أجبرني على العمل، بطريقة ما. قال إن عليّ أن أعمل حتى أسدّد ديونك.

ـ ماذا؟

شد على قبضتيه وقفز واقفاً، وبدأ غضبه يتصاعد بشكل ملموس. واحمرّ وجهه حتى أصبح أحمر بشعاً. فمسّت ذراعه وجلبته ليقعد:

ـ أرجوك! لم أعترض، بل تمتعت بالعمل. كان يظن أنه يستخدمني لينتقم منك، لكن الأمر ارتد عليه. فقد أحببت عملي.. وكنت أريد الوصول إليك وليس لدي مال، ففضلت العمل عنده حتى أصل إلى مأربي. ليتك تعرف مدى معاناتي لأنني بت بلا عائلة، وليتك تعرف مدى يأسي إلى إيجادك.

أخذ رايان عدة أنفاس عميقة جاهداً كي يسيطر على أعصابه:

ـ ألم يؤذك؟

هزت رأسها بثبات:

ـ أبداً، لم يؤذني أبداً.

لكن، كان في صوتها شيء، ففحص أشياء أخرى فسألها بخشونة:

ـ ألم يحاول شيئاً آخر؟

هزت رأسها، لكنها كانت تعرف أن الذنب باد على وجهها فنظر إليها رايان فزعاً:

ـ لا تقولي إنك وقعت في حبه؟ ليس غرانت مونتغمري؟ أعرف أنه

نذل وسيم... هكذا كان قبل أن...

صمت وقد بدا مضطرباً.. فأحست ماندي بالعطف لكنها علمت أنه لن يحتاج إليها الآن. فقالت:

ـ أخشى أنني أحببته، إنه رجل عظيم رايان. لكن الحب من طرف واحد فلقد رجع إلى ڤاليري.

ـ هذا ما عرفته.. لكنها فاجرة دون أدنى شك، رغم كرهي لهذا الرجل إلا أنني أراه يستحق من هي أفضل منها.

ـ ظننتكما؟

ـ ساعدتني حين احتجت للمساعدة.. وكان بيننا شيء ما يوماً، لكنها تمنح نفسها لأي رجل مقابل المال.. أنا دهش من عودته إليها خاصة وهي قد عاملته تلك المعاملة المزرية! كيف عرفت أننا صديقان؟ هل أخبرك غرانت؟

ـ أنت تمزح.. إنه ماكس.. لقد احتواني تحت جناحه.. ورغب في مساعدتي.

رد بمرارة:

ـ أو ربما كان يساعد غرانت على أن يجدني بواسطتك.. ليس لديك فكرة عن المأزق الذي وضعتني فيه. كنت أريد رؤيتك، لكن لم يكن لدي خيار.. فربما أخبرت غرانت، أو ربما أخرج منك الحقيقة عنوة. كنت أعلم أنه لو وضع يديه عليّ لقتلني.. يجب أن تعرفي أنني لم أقصد أذيته. كنت خائفاً لأنه ضبطني.. وتصرفت عن غير وعي، منذ تلك الحادثة والندم يتآكلني.

ـ أيعلم غرانت بوجودك في المزرعة؟

ـ أجل.. لكنني لا أدري كم من الوقت سيمنع نفسه عني. قال إنني أستطيع محادثتك، لكنني لا أثق به.

ـ حقك أن تخشاه، فهو يكره رؤيتك.. لكن شرحت له وضعك.

قاطعها رايان بوحشية:

ـ ماذا سيفعل؟ غرانت مونتغمري رجل غير متسامح، ألم زلت لا تعرفينه جيداً؟

هزت رأسها بحزن:

ـ أنت على حق، طبعاً. إنه يسعى إلى إهراق دمك، عرفت هذا طوال الوقت. كيف خاطرت بالمجيء إلى هنا، أنا ممتنة لك، حقاً. أخبرني ماذا فعلت في السنتين الأخيرتين.

بدا الحرج عليه:

ـ كنت أتلقى المساعدة بسبب إدماني على المسكرات.

ـ كيف استطعت أن تسرق؟ قال غرانت إنك عبثت بحساباته، وإنك مدين له بمبلغ كبير.

تنهد رايان:

ـ أنا لست ذلك الأخ الطيب ماندي... ولست أدري لماذا تريدينني... أعتقد أن من الأجدى أن تعرفي كل شيء عني الآن. لقد كنت أعاني من المتاعب حتى في انكلترا، لقد سرقت بعض المحلات في طفولتي مع أنني لم أكن أحتاج مالاً وما كان ذلك إلا للإثارة التي يبعثها الفرار والهرب. وحين انتقلت إلى هذا البلد حسبت نفسي بادئاً بحياة جديدة، لكن المال شح في يدي ووجدت السرقة سهلة إنها كمن يأخذ قطعة الحلوى من طفل. وعندما أصبح في جيبي مالاً رحت أعاقر الخمر وأعاشر النساء ومنهن ڤاليري تشاتوم، وفي النهاية أصبحت مدمناً واضطررت إلى إيجاد طرق أخرى للحصول على المزيد من المال.. حين أعود بالذاكرة إلى الوراء أرى شدة عنائي.. لكنني تلقيت العلاج الآن، وأصبحت شخصية مختلفة.

ـ أيعلم غرانت هذا؟

كانت تستمع إلى قصته بدقة، تحس بالرعب، فالشفقة فالارتياح،

أجابها:

ـ لم نتبادل سوى بضع كلمات، أعتقد أنه بعد أن أنهي محادثتك سوف..

ـ دعني أكلمه. سأشرح له ما شرحته لي. وسيكون كل شيء على ما يرام، أعرف هذا.

رد بخشونة:

ـ لا.. أنت لا تعرفينه كما أعرفه. متى أدخل شيئاً في رأسه يصعب أن يخرجه منه أحد. إنه حاقد علي، وأعرف هذا!

ـ إذن سنرحل.. سنرحل معاً، سنذهب الآن. قبل أن يعرف ما نفعل.

ـ وبماذا نهرب.. ألديك سيارة؟

هزت رأسها نفياً، فأكمل:

ـ كيف إذن، أخبريني؟

ـ كيف وصلت إلى هنا؟

ـ غرانت أحضرني.

رددت دهشة لا تكاد تصدق:

ـ غرانت؟

هز رأسه وضم شفتاه بقوة:

ـ أنا الآن تحت رحمته ماندي.. ولا مجال للهرب.

ـ هراء! لن أدعه يقتلك، سنهرب بطريقة ما. لدي صديق، يملك سيارة قال إنه سيعطيني إياها حين يترك العمل، وسيساعدنا أعرف هذا.

أخذت ترمي ملابسها في حقيبتها وهي تتكلم، ثم أقفلتها. فأمسكها رايان:

ـ أرجو أنك على حق ماندي..

فتحت الباب وجالت النظر في الممر، ثم خرجا من المطبخ إلى الفناء الخلفي. . وكانت ماندي تعلم أن مايك ينام على سرير في مخزن التبن، رافضاً مشاركة ماكس شقته. ولقد توقعت أن يذهب إلى هناك مباشرة بعد عودتهما. لكن المخزن كان فارغاً، وحين نظرت إلى حيث يحتفظ بسيارته وجدت المكان فارغاً كذلك، فالتفتت إلى رايان يائسة:

ـ إنه ليس هنا! ماذا سنفعل؟

قبل أن يرد رايان ظهر شخص من العتمة، وجمدت ماندي تتمسك بذراع أخيها.

ـ أذاهبان إلى مكان ما؟

رن صوت غرانت الأجش العميق في العتمة. فاهتز قلب ماندي حتى عجزت عن النفوه بكلمة، أما رايان فوقف متوتراً وراح ينظر إلى الرجل المتعجرف.

سألته ماندي بعداء:

ـ أين مايك؟

رد بصوت منخفض خطير:

ـ رحل.

ـ بسببك كما أعتقد!

رد ببرود:

ـ كان هذا ضرورياً. . لقد حذرتك من الخروج معه ثانية.

ـ لا شأن لك بحياتي الشخصية!

ـ ربما لا. . لكن من حقي أن أستخدم وأطرد من أشاء وما مايك إلا عامل رحّالة. أكنت تفكرين في طلب المساعدة منه؟

لم تستطع أن تخفي عداءها:

ـ تعرف هذا جيداً

كانت غاضبة لأن خططها فشلت. لكن ماذا تفعل وهي تجد صعوبة في أن تصدق أن هذا الرجل الذي تحبه بعيد عنها هذا البعد كله. وفي هذه اللحظات كرهته فقد أصبح لرايان المركز الأول في حياتها الحالية وهي تريد أن تهرب معه.

بقي أخوها صامتاً. . لكنه قال بهدوء لها الآن:

ـ لم يعد بمقدورك فعل شيء. فهذه النهاية.

ونظر إلى رئيسه الأسبق، لكن قبل أن يقول شيئاً تحدثت ماندي:

ـ لقد خضع رايان للعلاج وأصبح مختلفاً يا غرانت! هل أخبرك بهذا؟ وهو آسف حقاً على ما فعل.

نظرت إلى الجرح في وجه غرانت وتساءلت عما إذا كان أسف رايان قد يساعد.

ـ لقد خضع للعلاج وشفي من الإدمان على الخمر. وبما أنني الآن هنا لأساعده، فأرجوك. . . دعنا نذهب.

قال رايان:

ـ ما تقوله ماندي صحيح، وأنا آسف غرانت. لم أكن أقصد أذيتك. لقد فقدت عقلي. . أما الآن فأنا أعيش عيشة جيدة، لديّ شاحنتي الخاصة، وقريباً سأتمكن من رد مالك.

لم يرد غرانت، بل نظر إليهما، عاقداً حاجبيه الأسودين، ممتلئاً وجهه بغضب ليس فيه أثر للغفران.

ـ أريد أن أتحدّث إليك رايان. . وحدنا!

تعلقت ماندي بأخيها، لكن رايان تخلص منها:

ـ لا تقلقي ماندي. . سأكون على ما يرام.

لكن ماندي لم تكن واثقة من هذا. . كانت تحس بأن غرانت قد يؤذي رايان، فهو لم يصدقه. لذلك خشيت أن تتركهما وحدهما. قال غرانت:

- خمس دقائق.. هذا كل ما أنا بحاجة إليه.

ارتفع رأس ماندي تتهمه عيناها الباردتان:

- خمس دقائق مدة أكثر من كافية لقتل إنسان.

لاحظت حتى في الظلام أن كلماتها زادته غضباً، فقد اتسعت فتحتا أنفه واشتد خط فمه حتى استطاعت أن ترى بوضوح مكافحته غضبه. كانت أصابعه تنقبض، وصدره يعلو ويهبط.

- طلبت منك مرة أن تثقي بي ماندي.. أنا لن أؤذي أخاك.. أعدك. أريد أن أتحدث إليه مهما قلت أو فعلت.

وارتدّ عنها، أما رايان فنظر نظرة اعتذار مبتسماً ثم لحق به.

لقد ذهب إلى المقصلة بقدميه، كانت تعلم أنها تبالغ كثيراً بقلقها.. لكنها كانت خائفة على رايان الذي يكرهه غرانت كرهاً شديداً. وهو لن يصدق أن رايان تبدل وأصبح إنساناً آخر.

سارت خلفهما ببطء.. وأخذت تذرع الممر خارج المكتبة. ومرت خمس دقائق، ثم عشرة.. وحين لم يخرجا أنصتت إلى الباب أولاً ثم طرقته وفتحته فارتدت مذهولة وهي ترى الرجلين جالسين بكل هدوء على جانب الطاولة.

كان بينهما صينية عليها إبريق قهوة وفنجانين. حين ثم ترَ أثراً للغضب على وجههما، تلاشى عداءها فابتسمت بضعف وبان الخجل على وجهها.

- فكرت، أنكما.. كنتما.. تأخرتما.. تساءلت.. ماذا حدث.

رد غرانت:

- تعنين إن كنت قد صدقت الوعد؟ أترين.. إنه ما يزال قطعة واحدة، سالماً.

وقف رايان مبتسماً يحنان إلى أخته:

- كدنا ننهي حديثنا.. وأنا متعب. ولقد عرض علي غرانت بكل

لطف سريراً للمبيت. وسأذهب إلى النوم.

قالت باحتجاج:

- لكنني أريد سماع ما حصل.

هز رايان رأسه:

- سنتحدث بهذا صباحاً.. تبدين متعبة كذلك، فلماذا لا تأوين إلى فراشك؟

فقال غرانت:

- أود أن أحدثها قليلاً.

نظرت إليه غاضبة:

- لا شيء بيننا يُقال.

- ألا أستحق على الأقل كلمة شكر لأنني لم أؤذي أخاك؟

- لا أثق بك. فكراهيتك كانت تختمر في نفسك سنتين.. فلا تقل لي إنك نسيت الأمر. أخالك تقتله وهو نائم في فراشه، فهذا هو السبب الوحيد الذي جعلك تطلب منه المبيت الليلة.

تحركت عضلات فكيه بقوة، وازداد برود عينيه فعمد إلى صرف رايان من الغرفة بإشارة متكبرة من إصبعه. وحين أقفل الباب خلفه ارتد إلى ماندي بوحشية:

- أنا لا أقبل ملاحظات كهذه بسهولة!

رفعت رأسها متحدية وعيناها تلمعان:

- وهل تقترح عليّ أن أعتذر؟

- بل أقترح سحب كلماتك.

- لا.. ! فأنا لا أثق بك غرانت. هذه هي الحقيقة، أحببتها أم لا!

- هل أتجشم عناء البحث عن رايان والمجيء به إلى هنا، وتركه يتحدث إليك لو كنت أنوي أذيته؟

- لقد أقسمت على قتله.

- وكنت أعني ما أقول.. يوماً.

نظرت إليه بريبة:

- أتعني أنك.. سامحته؟

- لا لم أسامحه. لكني لن أزج نفسي في السجن من أجله. لقد أخبرني عن العلاج بل أعطاني أسماء الأخصائيين لأتأكد إن أردت. ادعى أنه كان مريضاً حين هاجمني وإلا لما ارتكب بحقي ذاك الجرم.

- وصدقته؟

- سأحتفظ بحكمي موقتاً.. فالزمن وحده يثبت كلامه.

- لكن.. هل ستمهله فرصة؟

هز رأسه وابتسامة قاسية على شفتيه فعلمت ماندي أنه يقول الحقيقة.. فقالت بهدوء وبساطة:

- شكراً لك، شكراً لك غرانت. سأكون شاكرة لك عفوك إلى آخر عمري.

أرادت أن ترمي نفسها بين ذراعيه. لكن التفكير في ڤاليري منعها، فهي الفتاة التي يحبها، ويجب عليها أن لا تنسى هذا.

ارتدّت متجهة إلى الباب، لكنه ناداها قبل أن تضع يدها على المقبض. في صوته ما جعل نبضاتها تتسارع فجأة.. استدارت ببطء فالتقت عيناها عينيه السوداوين المثيرتين وهو متجه نحوها. رفع يديه وأمسك ذراعيها ثم نظر في عينيها، يبحث، ويدقق.

أغمضت عينيها بانتظار ما سيفعل، واشتد توتر أصابعه على ذراعيها حتى أحست به يؤلمها، وحين لم يتحقق شيء مما كانت تنتظر، تجرأت على فتح عينيها، فصدمتها نظرة الألم والرغبة على وجهه. ثم تركها، يدفعها إلى البعيد:

- هذا جنون!.. اذهبي إلى الفراش ماندي.. فليس من حقي أن أفعل بك شيئاً.

فهمست:

- لماذا؟ لماذا يا غرانت؟ أريد أن تحضنني، يجب أن تعرف هذا.. أهي ڤاليري من تمنعك؟

كان ظهره إليها وكتفاه مقوستان، يحدق إلى ظلام الليل خارجاً وقد بدا مضطرباً، فظنت ماندي أنه يحس بعدم الإخلاص لڤاليري وجاءها صوته معلباً:

- بالله عليك ماندي.. اذهبي من هنا!

ثمة ما هو خاطىء في مكان ما. لكنها لم تستطع تحديده.. فأسرعت نحوه، لكنها قفزت مرتدة حين استدار.. كان وجهه مظلماً بأحاسيس محددة بدت تخترق نفسه وكان جرحه حياً بارزاً كما لم تره يوماً.

دون أن تحاول مجادلته، استدارت وخرجت، تقصد غرفتها مباشرة. إن تصرفاته تحيرها، وتخيفها.. وكأن شيطاناً يسكنه ويعيث فيه فساداً. وكأن لهذا علاقة بها وبڤاليري.

تمنت متأخرة لو بقيت أمامه.. فلربما لو عرفت كيف تلعب لعبتها جيداً لربما استطاعت أن تسترده من قبضة ڤاليري! لكن من الأفضل لها ألا تراه ثانية.. فهو الرجل الوحيد الذي أفقدها الثقة بنفسها.. فها هي تحس بالعجز وتشعر بأنها عالقة في شراك الرغبة.

ثم.. هناك رايان لتفكر فيه. ربما غرانت لم يؤذه حتى الآن لكنها تشعر أن هذا هدنة متأرجحة. ومن الأفضل لهما أن يرحلا في الصباح.

سمعت من بعيد صياح قبرة الليل الشبيه بالضحك، تبعته أوركسترا كاملة من تغريد طيور الليل على رؤوس الأشجار، أكانت أصوات الطيور يوماً شجية هكذا! وكأنما تحاول أن تقول لها إن هناك يوماً جميلاً آخر يجب أن تحياه.

تنهدت باستسلام ثم دفعت الغطاء الوحيد عنها، ثم قصدت

الحمام فاستحمت سريعاً، متسائلة لماذا أوقعها قدرها بحب هذا الرجل المسلوب اللب بامرأة أخرى.

نظرت إلى حقائبها التي ما زالت حيث تركتها ليلة أمس. أصبحت الآن تعرف أن الرحيل أفضل عمل تقوم به فهو سبيلها الوحيد إلى الخلاص. فالبقاء يعني العذاب المطلق.

بعد أن تناول الرجال الفطور وبعد خروجهم، وصل رايان إلى المطبخ مبتسماً بمرح. وضعت طبق اللحم والبيض أمامه، لكنها لم ترَ على وجهه أثراً للاضطراب بسبب وجوده في منزل رجل يهدّد بقتله.

فسألته متجهمة:

ـ لمَ تبدو سعيداً هكذا؟

ـ إنه يوم جميل يا أختي الساحرة. وها أنت هنا، وأنا من كنت أؤمن أنني لن أراك ثانية. فماذا يطلب المرء أكثر من ذلك؟

قطبت جبينها:

ـ أظن أن علينا المغادرة حالما تنهي طعامك. فأنا لا أثق بغرانت... ستتصل هاتفياً لطلب تاكسي حتى نغادر قبل أن يعود.

ابتسم لها رايان:

ـ لا لزوم لهذا، قال غرانت إن بإمكاني البقاء هنا إلا إذا كان هناك حاجة ملحة للذهاب.

أحست فوراً بالارتياب:

ـ لماذا؟

هز كتفيه:

ـ كل ما أستطيع قوله إنه رجل أكثر من كريم.

ـ إن لهذا الكرم دوافع مريبة. ومن الأفضل أن ترحل، كنت سأمكث في المزرعة حتى أجدك، وها دافع بقائي قد زال.

ـ وماذا عن حبك لغرانت، ألا يدعوك إلى البقاء؟

فضحكت:

ـ هذا هو السبب الرئيسي الذي يدفعني للرحيل، فأنت لا تفهم كيف يكون الأمر حين تحب المرأة شخصاً متعلقاً بامرأة أخرى. إنه أمر مؤلم جداً.. أرجوك رايان.. دعني أعيش معك.

هز رأسه بحزن:

ـ لن ينجح الأمر ولو أردته ماندي.. أنا أعيش في غرفة صغيرة لا مكان فيها لأي شخص آخر.

ـ نستطيع أن نجد مكاناً أوسع.

ـ ليس الأمر سهلاً. استأجرتها لأنها رخيصة وهي تناسبني. آسف ماندي.. عليك أن تستمري في العمل لدى غرانت. إنه يدفع لك راتباً محترماً، ولو تركت عملك الآن فقد لا تجدين عملاً آخر، وعندها ستبقين دون مال، وهذا ما لا تستحقينه. لقد خبرت الفقر ولا أرغب في العودة إلى المتاعب ثانية.

ـ ليس هناك ما يحول بيني وبين الحصول على العمل، فلدي مؤهلاتي.

ـ أجل.. أذكر أن أمي أخبرتني عن التحاقك بالجامعة.. لكنك اخترت مهنة غريبة بالنسبة لفتاة. كيف سارت أمورك؟

ـ رائعة.. كان لدي وظيفة عظيمة حين تركت الكلترا، ولدي رسائل توصية ممتازة، ولا أظنني سأجد مشكلة في التوظيف. لكن يبدو أنك لا تريدني معك..

تنهد نافد الصبر:

ـ لا تصعّبي الأمور عليّ أكثر مما هي الآن ماندي.. إنني أقول لك الحقيقة، إنها المرة الأولى التي أكون فيها مستقيماً وأريد الاستمرار فلو انتقلت إلى منزل آخر أوسع وأكبر لكلفني ما لا طاقة لي به، وهذا ليس بالحل الصائب.

لم تجد ماندي جدوى من متابعة هذا النقاش فسألته أمراً كان يحيرها:

- كيف وجدك غرانت؟

- بواسطة ڤاليري!

لم تدهش فتلك المرأة تحسب أنها تخدم غرانت. وتابع:

- أعترف أنني كنت خائفاً حين وصل، ما إن سمعت قرع الباب حتى عرفت أنه هو. كنت أتوقعه منذ زمن بعيد، وحين علمت بقدومك إلى هذا البلد عرفت أن الأمر أصبح محتماً.

- لكنني ما كنت لأخبره.

هز رأسه:

- كان يتربص بهدوء، ولو أراد لوجدني منذ زمن. أظن أنك أنت من حرّك الماء الراكد.

- لماذا لم يسع إليك إذن، لقد هدد به دائماً.

- لم يكن ودوداً معي، لكنه بدا قلقاً عليك. قال إنني أكاد أدفعك إلى الانهيار وإنه يجب أن يكون لدي كرامة لأتحدث إليك.

اتسعت عيناها:

- أنت تمزح! ولماذا يزعج نفسه بي؟

قال رايان ببطء:

- ربما... يهتم بأمرك؟

- هراء! أحسست أنه مهتم بي يوماً وكانت الدلائل تشير إلى ذلك. ثم ظهرت ڤاليري، فأصبحت فجأة خارج حياته، ومنذ ذاك الحين أهملني كل الإهمال وبت لا أراه إلا نادراً.

- لم يكن هذا انطباعي عنه، ربما خشي أن يظهر مشاعره؟ لقد شوّهته تشويهاً فظيعاً، ولم أكن أعرف هذا. وربما يحس أن من غير العدل أن يربط حياتك به.

ردت بغضب:

- لكنني لم أنزعج قط منه، ولهذا لم أفهم سبب عودته إليها. يا إلهي! لقد أذته أكثر مما أذيته أنت، وكانت جراحة تجميلية بسيطة كفيلة بإزالة جرحه، لكن ليس هناك مجال لإصلاح الضرر النفسي.. لقد حطمته تماماً يا رايان.. لم أشاهد رجلاً في مثل حالته قط.. كان يحس بأنه سيكون غير عادل إذا صادق امرأة.. كان يظن نفسه نوعاً من الوحوش.

- يا الله.. ليس الأمر بهذا السوء.

- قل هذا له.. لم يخرج مع امرأة منذ سنتين، وهذا غير طبيعي! لقد رفع عن وجهه قناعه مرتين ليس إلا. وأنا أجده جذاباً ساحراً... إنه أكثر الرجال إثارة، عظامي تذوب لمجرد النظر إليه... أتظنني سخيفة؟

- وهل أخبرته بمشاعرك؟

صاحت:

- يا رباه! لا! فما فائدة أن أقول له إنني أحبه، وهو مهتم بڤاليري؟

- أظنه سيجد هذا القول مثيراً للاهتمام...

صدرت هذه الكلمات من ورائها بهدوء من حنجرة غرانت العميقة، فارتدت مصعوقة على عقبيها، والدم يتدفق ساخناً قرمزياً إلى وجهها. وصاحت به بحدة:

- منذ متى أنت هنا؟

والتفتت إلى رايان قائلة بحنق:

- لماذا لم تقل إنه هنا بحق الله!

رد غرانت بهدوء:

- لأن أخاك يحس بأن من حقي أن أعرف، أعني أن الرجل يجب أن يسمع هذه الأشياء من الفتاة.

- لكن ليس من حقك التجسس!

- لولا تجسسي لما اكتشفت الحقيقة، وما كشفته أمامي أنار لي الطريق. أعتقد أنه حان الوقت حتى نتبادل بعض الحديث. سأنتزعك من أخيك، فما سأقوله هو لأذنيك فقط.

أحست ماندي بانقطاع أنفاسها وهو يمسك ذراعها ويقودها بحزم من المطبخ إلى غرفتها. ولم يكن غاضباً، بل كان الاهتمام يكسو وجهه، والسعادة تغمره! أيشعر بالغرور لأنها وقعت في حبه رغم تشوهه؟ لقد أحبته هي وعادت إليه فاليري. إنه لفخور الآن يحس بأنه رجل مكتمل مرة أخرى!

لم تكد تخطو إلى غرفتها حتى شدها إلى صدره، ولفها بشدة بين ذراعيه. وقال بخشونة، وفمه على جبينها:

- ثمة شيء واحد يجب أن نهتم به فوراً، شيء لن أصبر عليه أكثر.

وكان عناقاً ليس كمثله عناق، أنساها الزمان والتعقل ونقلها إلى الأعالي حيث تشبثت بها، تجاوبت معه بقوة ووهبته نفسها دون تحفظ ونهلت منه دون معارضة. كانت يداه تثيرانها حتى أعمق أعماقها، تثيران فيها إحساساً جديداً مختلفاً لم تعرف مثله قط، دفع الدم غزيراً إلى كل شريان في جسدها كله. أخيراً أبعدها عنه متمتماً:

- يا الله.. ما أشد ما كانت حاجتي إلى هذا العناق، والآن قولي لي في وجهي ما كنت تقولينه لأخيك، أريد أن أتأكد من أنني لم أتخيل ما سمعت.

ردت بصوت كسير مع أن عينيها كانتا تشعان بالمشاعر:

- وما الفائدة؟ ما كنت أريد أن تعرف. وبما أنك عرفت الآن فستصبح الأمور أصعب على كاهلي.

رد بلطف:

- أنت مجنونة.. أريد أن أسمعك تقولينها، الآن! في هذه

اللحظة.

تساءلت ماندي في ما إذا كان يشعر بتجدد الحياة كما تشعر هي، في ما إذا كان قد وصل إلى الجنة وعاد منها، مثلها. وفي ما إذا كان يريد العودة إلى قوق مجدداً، لقد كان بارعاً في إخفاء ما يشعر به. لكنه لم يستطع السيطرة على النبضات التي كانت تنتفض على صدغيه.

لكن كيف تعترف له بحب لا طائل منه؟ مع ذلك ابتلعت ريقها بصعوبة وقالت وكأن الكلمات تُسحب منها جبراً:

- أحبك غرانت... هاك.. أراض أنت الآن بإذلالي؟

أحست بالدموع تتجمع في مآقيها، فسارعت إلى إغماضهما لئلا تندفع الدموع وتفضحها... فلامس وجهه:

- ألا تأبهين بتشوهي؟

هزت رأسها تنظر إليه عبر دموعها:

- إنني لا أكاد ألاحظه، صدقني هذه هي الحقيقة.

- يا طفلتي الحلوة... أصدقك.

وتنفس عميقاً، ليعود ويطويها إلى صدره، حتى كادت رئتاها تعجزان عن التنفس، وتابع:

- أنت الوحيدة التي لم يترك الجرح أثراً في نفسك، ظننته أثر فيك، لكنني كنت أحمق، وعرفت الآن أنك ما ارتددت عني إلا لأنك كنت تحسين باهتمام نحوي، وأنك كنت لا تسمحين لي بملامستك لأنني أوضحت لك بجلاء أنني لا أريد أن ألتزم بامرأة أخرى، صحيح؟

اعترفت بخجل:

- صحيح!

- يا الله ما أعظم ما كان غبائي! كان يجب أن أعرف أن ما فعلته فاليري لا ينطبق على الجميع. كان ذلك اليوم الذي قضينا على شاطىء البحيرة رائعاً، أفسدته أنا بيدي لكنني فيما بعد أمضيت يوماً كاملاً

أحاول التفكير. كان يجب أن أصغي إليك، كان يجب أن أعرف أنك أنت من بين كل الناس لا تكذبين وكان يجب أن أعرف أنك لا تشمئزين مني وأنك كنت تعنين ما تقولين... أواثقة أنت من هذا؟.. سيكون الأوان قد فات بعد الزواج، فأنا لا أؤمن بالطلاق.. خلتني مرة وجدت الفتاة المناسبة حتى ظهرت على حقيقتها لكنني لا أظنني مخطئاً هذه المرة.. فأنا مجنون بحبك ماندي وقد دعوت الله كثيراً أن تقعي في حبي. لكنني لم أكن أؤمن بأن الحب قد طرق قلبك.

كانت ماندي تصغي وكأنها في حلم جميل فيه الحياة أجمل وأروع.

ـ أتحاول أن تقول إنك تحبني أيضاً؟ أم أسيء تفسير كلامك لأنني أتوق إلى هذه الكلمة؟

ـ أحبك.. أحبك بكل كياني الضعيف، أحبك منذ دخلت إلى حياتي.

ـ ألهذا أبقيتني في مزرعتك؟

ابتسم:

ـ لولا انجذابي إليك لرفستك وأنت خارجة، لكنني حاولت مراراً أن أقنع نفسي بأنك لست لي لأنك تذكرينني برايان.. والله وحده يعرف كم كنت أكرهه!

ـ أما زلت تكرهه؟

فكر قليلاً ثم أجاب:

ـ لا.. أصبح كرهي أسفاً عليه. لقد مرّ بعذاب أكبر من عذابي، لكن يبدو أنه قد أبصر نور الحق أخيراً. وأنا مستعد إلى مسامحته لأنه أخوك، لن أقول إنني سأحبه، لكنني ما عدت أشعر بذلك الحقد نحوه.

ـ ما أسعدني.. لكن.. إذا كنت تحبني، فلماذا عدت إلى

فاليري؟ أهذا عدل لها أو لي؟ لا يمكنك أن تحب امرأتين معاً.

ـ أتعتقدين أنني أحب تلك العاهرة؟ يا الله.. لا.. وألف لا!

ـ لماذا عدت إليها إذن؟ لقد أحسست بأنك صليتني حين فعلت هذا. ظننتك ما زلت على حبها، كما ظننت أنك غفرت لها.

ـ لن أغفر لها أبداً ما دمت حياً، إن هذا هو ما قلته لها دون مواربة هذا الصباح، لم تأخذ الأمر بسهولة.. لكنها ستتغلب على حزنها. ولن يمضي وقت طويل حتى تكون قد أقنعت أبلهاً مسكيناً آخر بأنه الشخص الوحيد المناسب لها.

ـ لكنك لم تخبرني بعد لماذا كنت تقابلها؟

ـ لقد أغرتني.. وعدتني أن تعطيني عنوان رايان إذا وافقت على إعادة علاقتنا إلى مجراها.

شهقت ماندي لكنها لم تقاطعه:

ـ لكنها تأخرت في هذا، ولم يكن في يدي إلا مجاراتها في لعبتها حتى أحصل على ما أريد.

ـ لقد دهشت لأنك تركته يراني أولاً.

ـ يا الله.. أنا لم أبحث عنه لأضع يدي عليه بل بحثت عنه من أجلك أنت. لم أستطع تحمل تعاستك، كان إخلاصك له فخراً لك. ولقد وجدته لأنك تريدينه يا حبيبتي.

ـ أتعني أنك لم تكن ترغب حقاً في رؤية فاليري.. وأنك أجبرت نفسك على مجاراتها من أجلي؟

ـ كان هذا ما تنويه.. لكن العلاقة لم تعد كما كانت، أتظنين أنني قادر على معاشرتها بعد ما فعلته بي؟

ـ إنها امرأة جذابة، قد تحصل على ما تريد عادة.

ـ لكنها لن تحصل علي، فلا وجود لها في حياتي. انسيها إلى الأبد.

رفعت ماندي نفسها على أطراف أصابعها وعقدت ذراعيها حول عنقه تشده إليها. . . أحست بوهج دافىء ينتشر في أوصالها حتى غلّف كل كيانها. فابتسمت وقالت:

- أظن. . سيد مونتغمري أنني سأتمتع بأن أكون السيدة مونتغمري، وأحسبني سأتركك تقنعني بالتخلي عن مستقبلي المهني!

- لن أفعل هذا أبداً، فللمرأة أن تفعل ما تريده.

رفعت ماندي حاجبيها بسخرية لكنه تجاهلها.

- ربما لن يسعدني خروجك إلى العمل يومياً.

- وأنا كذلك إذ أفضل البقاء والعمل عندك.

- ليس عندي. . بل معي. سنكوّن فريق عمل واحد.

- تصور. . لولا ما فعله رايان بك لما التقينا. .

- معك حق. . . ربما هو ليس رجلاً سيئاً على أية حال!

* * *